

في الأدب

للسنة الثالثة الثانوية (القسم الأدبي)

تأليف

عيسى محمود ناصر
المفتش بالتعليم الثانوي

احمد عثمان عبد المجيد
المدرس الأول بالمنصورة الثانوية

محمد محمد ابو تمانية
المدرس الأول بالملك الكامل الثانوية

عبد القادر ابراهيم دلاش
المدرس الأول بالمنصورة الإعدادية

محمد الصياد السمرى
المدرس بالمنصورة الثانوية

السيد عبد العال ابراهيم
المدرس بالمنصورة الثانوية

الناشر : مكتبة الشامي بالمنصورة
يطلب من المكتبات الشهيرة بالقاهرة والأقاليم

الثمن ١٠ ص

مطبعة الفجالة الجديدة
شارع كامل صدقي – خلف العمارة رقم ١٦



للسنة الثالثة الثانوية (القسم الأدبى)

تأليف

عيسى محمود ناصر
المفتش بالتعليم الثانوى

احمد عثمان عبد المجيد
المدرس الأول بالمنصورة الثانوية

محمد محمد ابو ثمانية
المدرس الأول بالملك الكامل الثانوية

عبد القادر ابراهيم دلاش
المدرس الأول بالمنصورة الإعدادية

محمد الصياد السمرى
المدرس بالمنصورة الثانوية

السيد عبد العال ابراهيم
المدرس بالمنصورة الثانوية

الناشر : مكتبة الشامى بالمنصورة
يطلب من المكتبات الشهيرة بالقاهرة والأقاليم

مطبعة الفجالة الجديدة
شارع كامل صدقى - خلف العمارة رقم ١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين . وبعد :

فيسرنا أن نتقدم بكتاب «الضياء» فى الأدب إلى السادة زملائنا ، وإلى أبنائنا الطلبة ، وسيجدون فيه — كصنوه فى النقد والبلاغة — حرصاً على جمع الحقائق العلمية للأدب وتاريخه ، مبوبة ميسرة ، فى إيجاز لا يخل بكمالها ولا يذهب بحقها ، بعد أن قدمنا النماذج المشخصة لروح كل فن من فنون الأدب فى عصر المماليك وفى الفترات الثلاث التى تميز بها العصر الحديث .

وأملنا أن يجد فيه الجميع بغيتهم ونفعهم .

حقق الله آمالنا وهدانا لما فيه الخير .

اكتوبر ١٩٥٦ المؤلفون

حال الأدب فى العصر التركى

أولا : عصر المماليك (٦٥٦—٩٢٣هـ)

(١) الشعر

١ — قال ابن نباتة يشكو حاله إلى أحد الأمراء :

يا سائلى بدمشق عن أحوالى ‏ ‏ قف واستمع عن سيرة البطال(١)

ودع استماع تعشقى وتغزلى ‏ ‏ ماذا زمانُ العشق والأغزال

طول النهار لباب ذا من باب ذا ‏ ‏ أسعى لعمرُ أبيك سعى ظلال

وإذا تعذر موردٌ وقصدت لى ‏ ‏ صحباً وجدت الصحبَ مثلَ الآل

أترى الزمان يعيننى بولاية ‏ ‏ أحمى بهـــا وجهى من التسآل

ابن نبـاتة :

حامل لواء الشعر فى عصر المماليك ، ولد بالقاهرة سنة ٦٨٦ هـ . رحل إلى الشام سنة ٧١٥ هـ . لضيق عيشه ، واتصل بالملك المؤيد صاحب حماة وأصبح شاعره الأثير عنده ، وفى سنة ٧٥٧ هـ . دعاه السلطان حسن إلى العمل بديوان الإنشاء بمصر فظل بها حتى مات فى أسوأ حال سنة ٧٦٨ هـ .
أجاد التورية ويمتاز شعره الجيد برقة اللفظ وانسجامه وخفة الروح .

النقد :

اخترنا هذا النص من شعر ابن نباتة ليمثل لك النواحى المشخصة لشعره من الرقة والسهولة . ولروح العصر من السير فى طريق الضعف والاضمحلال الأدبى ، ففيه تعبيرات سوقية ومعان بلدية . وفى كلمة « الآل » تورية : المعنى القريب « الأهل » ، والمعنى البعيد « السراب » . وجمع الغزل على أغزال جعل العبارة مضحكة .

---

(١) المتعطل عن العمل من بطل الأجير يبطل بالضم أى تعطل .

ولو قرأت أبياتاً أخرى لهذا الشاعر لوجدت أنه يهتم بالطباق والجناس .

٢ — لابن نباتة من شعره الجيد . يرثى ولداً له مات :

اللهُ جارُكَ إن دمعيَ جاري ... يا موحشَ الأوطان والأوطار[1]

لما سكنْتَ من التراب حديقةً ... فاضت عليك العينُ بالأمطار

شتان ما حالي وحالك أنت في ... غرف الجنان ومهجتي في النار

خف النجا[2] بك يا بُنيَّ إلى السُّرى[3] ... فسبقتني وثقلتُ بالأوزار[4]

التعليق :

هذا النص من الشعر الجيد لابن نباته ، فأبياته جيدة وفيها جزالة وقوة ، وهذا قليل لو قسناه بشعر العصر العباسي الثاني . ومع ذلك تلمح في الأبيات ولوع ابن نباتة بالجناس « الأوطان — الأوطار » والتورية في « جاري » المعنى القريب من المجاورة والمعنى البعيد سائل ، وبالطباق « الجنان — النار » وفي البيت الأخير حسن تعليل لبقائه وسرعة ذهاب ابنه .

ومن هذا تتبين الروح الغالبة على الشعر في ذلك العصر .

٣ — للشاب الظريف في الغزل :

مثـــل الغزال نظرة ولفتة ... من ذا رآه مقبـــلا ولا افتتن ؟

أعـــذب خلق الله ثغراً وفماً ... إن لم يكن أحق بالحسن فمن ؟

في ثغره وخـــده وشكله ... (الماء والخضرة والوجه الحسن)

الشاب الظريف :

شاعر رقيق خفيف الروح ، كان مولعاً بالبديع كبقية شعراء عصره .

التعليق :

القطعة عذبة لطيفة خفيفة الروح من الشعر المرقص ، فيها بديع منسجم ،

---

(١) جمع وطر وهو الحاجة . (٢) النجاة والمراد السرعة .

(٣) السرى : مشى الليل والمراد الموت . (٤) الذنوب .

« جناس » وفى البيت الأخير لف ونشر .

٤ — قال البوصيرى : من قصيدة طويلة يمدح فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تسمى البردة ، بدأها بالغزل بقوله :

أمن تذكرِ جيرانٍ بذى سَلَمٍ   مزجتَ دمعاً جرى من مُقلةٍ بدم

وفيها يقول :

محمدٌ سيدُ الكونين والثقلـ   ـين والفريقين : من عُرب ومن عَجم

نبينا الآمرُ الناهى فلا أحدٌ   أبَرَّ فى قول : لا منه ولا نَعَم

دعا إلى الله فالمستمسكون به   مستمسكون بحبل غير مُنفصِم

أكرم بخلق نبي زانه خلق   بالحسن مشتملٍ بالبشر مُتَّسم

البوصيرى :

هو محمد بن سعيد بن حماد ، اشتهر بالبوصيرى . كان يشتغل بالكتابة ، وهو شاعر مصرى ظريف يميل شعره إلى السهولة ، وتكثر به النكت المستملحة ، والألفاظ العامية ، والتعبيرات السوقية . وقد أصيب بالشلل فرأى فى منامه النبي صلى الله عليه وسلم يكسوه بردته فاستيقظ وقد شفى من مرضه فقال هذه القصيدة يمدح بها الرسول وأطلق عليها البردة .

ولد سنة ٦٠٨ هـ ومات سنة ٦٩٥ هـ . وله قبر مشهور بالإسكندرية ، بجانبه مسجد تدرس فيه العلوم الدينية .

التعليق :

لو قرأت القصيدة كلها لوقفت منها على ما يأتى :

١ — ابتدأت بغزل تقليدى محاكاة للشعراء السابقين .

٢ — ذكر الشاعر فيها كثيراً من صفات الرسول وأخلاقه ومعجزاته .

٣ — يتجلى فيها بوضوح صدق عاطفة الشاعر ، وإعجابه الشديد بالرسول وعظم حبه له .

٤ ــ أسلوبها جزل وألفاظها مختارة بدقة وعناية .

ولقد أثرت هذه القصيدة فى نفوس الشعراء المعاصرين للبوصيرى فقلدوها ، وممن قلدها ابن حجة الحموى بقصيدة ذكر فى كل بيت منها اسم نوع من أنواع البديع أولها :

لى فى ابتدا مدحكم ياعُرْبَ ذى سلم   براعةٌ تستهل الدمعَ فى العلم

فذكر فى البيت الأول ــ كما ترى ــ براعة الاستهلال . وفى الثانى المناسبة وفى الثالث التكميل . وفى الرابع التفريق . . . وهكذا

ولذلك سميت قصائده بالبديعيات . وأخذ النقاد يشرحون هذه القصائد كلها ويفسرون أنواع البديع التى تشير إليها أبياتها .

وقد حاكى البارودى البوصيرى ثم حاكاه حديثاً شوقى فى نهج البردة .

٥ ــ قال نصير الدين الحمامى يصف داره :

ودار خراب بها قد نزلـ   ـتُ ولكن نزلت إلى السابعه

تساورها هفوات النسـ   ـيم فتصغى بلا أذن سامعه

وأخشى بها أن أقيم الصلا   ة فتقرأ حيطانها الراكعه

إذا ما قرأت إذا زلزلت   خشيتُ بأن تقرأ الوقعة

نصير الدين الحمامى :

شاعر مصرى اشتغل بتأجير الحمامات للناس ، وعنى بالشعر توفى سنة ٧١٢هـ

التعليق :

القطعة فيها وصف مزج بالدعابة ، وهذا لون من الشعر الفكاهى الذى انتشر بمصر ، واشتهر به المصريون فى أواخر العصر العباسى الثانى ، وزاد أيام المماليك . وهى تصور ــ مع قطعة ابن نباته السابقة ــ سوء حال الأدباء . وفيها مشخصات الضعف الذى أصاب الشعر وأودى به . « ألفاظ عامية ــ تعبيرات سوقية ــ تفاهة المعنى » .

النـــثر

وقع ابن نباتة لشخص بنظر مدرسة فقال :

« كيف لا . وهو نعم الناظر والإنسان ، وفى مصالح القول والعمل ذو اليدين واللسان ، وذو العزائم الذى تقيدت فى حبه الرتب ومن وجد الإحسان » .

التعليق :

فى هذا النص انحطاط أدبى ظاهر ، فالمعنى تافه والعبارة سقيمة والرغبة فى اصطياد التورية ظاهرة « فى كلمة الإنسان » والتكلف واضح . وقد عمد ابن نباتة فى آخره إلى الإتيان بما يسمونه « الاكتفاء » واجتزأ الشطر المشهور « ومن وجد الإحسان قيداً تقيدا » وذلك ليصل إلى السجعة المطلوبة .

٢ — كتب محي الدين بن عبد الظاهر يصف فتوح قلاوون للشام :

« وكم شكت منه حماة ، تُنبى بشكوها عن قلة الإنصاف ، وكم خافته معرة ومامن معرة خاف ، مازالت أيدى الممالك تمتد إلى الله بالدعاء عليه ، تشكو من جور جواره ، تلك الحصون والصياصى ، وتبكى بمدمع نهرها من تأثير آثاره ، مع عصيانها وناهيك بمدمع العاصى » .

محي الدين بن عبد الظاهر :

كاتب مصرى تعصب لطريقة القاضى الفاضل ، فى اتباع البديع فى النثر وتكلف التورية ، وهو من رؤساء ديوان الإنشاء توفى سنة ٦٩٢ ﻫ .

التعليق :

التلفيق والتكلف واضحان فى هذا النص ، فلو قرأت الكتاب كله لم تفهم ماذا يقصد الكاتب ، وما المعانى التى يريد أداءها . لقد ضاعت هذه المعانى تحت سيطرة البديع عليه . فهو مهتم بالسجع الطويل الفقرات والجناس « معرة ومعرة ، جور جواره » . والتورية فى « معرة » وفى « العاصى » .

٢ — وله أيضاً مما أكثر فيه من استعمال مصطلحات العلوم ، وبخاصة علم النحو :—

حرس الله نعمة مولاى ، ولازال كلِمُ السعد من اسمه وفعله وحرف قلمه يأتلف ، وأحمدُ عيشه لا ينصرف ، ولا عدمت نحاةُ الجود من نواله كلاً موزون ومعدود ، ومن فضله وظله كل مقصور وممدود ، ولا خاطبت الأيام ملتمسه إلا بلام التوكيد ، ولا عدوه إلا بلام الجحود »

التعليـق :

أرأيت أسخف من هذه المعانى وأتفه ؟ لم يصل بها إلى هذا الدرك من الإسفاف والانحطاط إلا هذا التكلف البغيض ، وهذه النزعة المكروهة التى تحكمت فى عقول كتاب ذلك العصر ، فأنطقتهم بما جر عليهم الزراية ، وقد كانوا فى غنى عن ذلك ، ولكن ماذا يفعلون والثقافة أصبحت ضحلة ، وطلب الرقى صار صعبا . والنقاد صاروا لا يعجبون إلا بهذه الألوان من الصنعة . ولقد تفنن كل كاتب فى الإتيان بلون لم يسبق إليه . وهذا ابن عبد الظاهر يستخدم مصطلحات العلوم فأفسد المعنى وأخفاه ، وتكلف السجع .

٣ — لصفى الدين الحلى : من رسالة سميت المهملة لخلوها من النقط : —

« أدام الله الملك العادل . العامل الأوحد الكامل . موئل الآمال ومآل الأرامل . ملك ملوك الدول . طامس أسماء الكرام الأول . أسد الآساد . ومكمد الحساد . الهمام الأروع . والأسد الأدرع » .

التعليـق :

هذه رسالة تكلف كاتبها الإتيان بنوع لم يسبق إليه . ولم يهتم بالمعنى فجاء تافهاً ، وهى مشحونة بالسجع والجناس . ولقد أراد بها إظهار مقدرته فى التفنن واختراع نوع جديد من البراعة اللغوية .

ثانياً : العصر العثمانى

١ — الشعر

١ — لشهاب الدين الحلبي فى وصف سبحة :

وسبحة مسودة، لونها ... يحكى سواد القلب والناظر
كأننى عند اشتغالى بها ... أعد أيامك ياهاجرى

٢ — لمحمد بن سُوار فى مروحة :

ومحبوبة فى القيظ لم تخل من يد ... وفى القر تجفوها أكُفُّ الحبائب
إذا ما الهوى المقصور هيج عاشقاً ... أتت بالهوا الممدود من كل جانب

تنبيه : لاحظ استعمال مصطلحات العلوم فى البيت الثانى والطباق بين المقصور والممدود، والجناس بين الهوى والهوا .

٣ — لابن الوردى فى سجادة :

سجادة أذكرتنى ... منك الذى كنت أعلم
أهديتها لمحب ... « صلى عليها وسلم »

لاحظ التضمين والتورية فى « صلى عليها وسلم » .

٤ — قال الشيخ الشبراوى مؤرخاً فى وفاة أحمد الدلنجاوى :

سألت الشعر هل لك من صديق ... وقد سكن الدلنجاوى لحده
فصاح وخر مغشياً عليه ... وأصبح ساكناً فى القبر عنده
فقلت لمن أراد الشعر أقصر ... فقد أرختُ : مات الشعر بعده

٨١   ٦٠١   ٤٤١

وقد مات الدلنجاوى سنة ١١٢٣ .

التعليق :

هـذه المقطوعات الصغيرة صورة واضحة لمـا آل إليه حال الشعر فى ذلك العصر. فالشعراء همهم الغوص وراء الصناعة اللفظية ، مما أدى إلى تفاهة المعانى والأغراض .

وقد اخترع الشعراء فى هذه الفترة لوناً من التفنن اللفظى هو « التأريخ بالشعر » كالشبراوى ، فقد أرخ لوفاة الدلنجاوى بجملة « مات الشعر بعده » فمجموع قيم حروفها العددية هو ١١٢٣ ؛ ومن المعروف أن كل حرف هجاء له قيمة عددية مخصوصة .

ب — النثر

من رسالة لعبد الوهاب الحلبى إلى الشهاب الخفاجى :

« لقد طفحت أفئدة العلماء بشرا ، وارتاحت أسرار الكاتبين سراً ، وجهراً ، وأفعمت من المسرة صدور الصدور ، وطارت الفضائل بأجنحة السرور ، بيمن قدوم من اخضرت رياض التحقيق بإقدامه . وغرقت بحار التدقيق من سحائب أقلامه . . . »

التعليق :

على هذا النمط يصاغ الكلام ، وتتنافس فيه الأقلام ، فهذه قطعة إذا تأملتها وجدت معناها تافهاً اختفى وراء هذه الرغبة الملحة فى الإتيان بالسجع وتكلف الجناس وسخف الاستعارات فالفضائل تطير ، وللسرور أجنحة وللتحقيق رياض ، وعدم الاهتمام بالمعنى اللغوى للكلمات ، مادامت تحقق جناساً أو سجعة أو تورية . وكلمة « إقدامه » معناها اللغـــوى شجاعته والمراد قدومه .

عصر المماليك

٦٥٦ — ٩٢٣ هـ

١ – مقدمة : إن قصة سقوط بغداد مؤثرة جداً تستطيع أن ترجع إليها في كتاب المنتخب حـ ٢ ص ١٦٨ للديار بكرى . ولقد كان سقوطها كارثة أصابت اللغة والأدب والمدنية العربية الزاهرة . وقضت على عهد مجيد كان فخر المسلمين وموضع زهوهم . فلقد عمد التتار إلى محو آثار هذه المدنية الإسلامية فخربوا بغداد ، وعمدوا إلى الكتب فأحرقوا بعضها وألقوا بالأخرى في دجلة ، وقتل هولاكو كثيراً من سكان بغداد بينهم عدد كبير من العلماء والأدباء ، ولجأ الناجون إلى مصر زعيمة العالم الإسلامى في ذلك الحين ، وبذلك أصبحت موئل الإسلام والعلم والأدب .

٢ – مصر مقر الخلافة : وبسقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ سقطت الخلافة العباسية . ولكن حدث في ٦٥٩ هـ أن قدم « أبو القاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر بأمر الله العباسى » إلى مصر فاستقبله الظاهر بيبرس ومعه القاضى والوزير والعلماء والأعيان . وبعد أيام بويع بالخلافة . واستمرت الخلافة العباسية بمصر إلى أن فتحها العثمانيون سنة ٩٢٣ هـ .

٣ – التجاء العلماء والأدباء إلى مصر : تطلع العلماء والأدباء بعد سقوط بغداد إلى مكان يجدون فيه راحة أنفسهم وأمن حياتهم . فلم يجدوا إلا مصر فلجئوا إليها واتخذوها مقراً وسكناً ، وأفسح لهم المماليك فى صدورهم . وعطفوا عليهم وشجعوهم وأغدقوا عليهم الهبات والعطايا . فانفسح أمامهم مكان القول والإنتاج فغردوا ونظموا وألفوا .

٤ – القاهرة مركز الثقافة الإسلامية : وأصبحت القاهرة مركز الحضارة الإسلامية وورثت حضارتين عظيمتين : حضارة بغداد ، وحضارة الأندلس فقد بدأ علماؤه وأدباؤه يفدون إليها فراراً من بطش الفرنجة ، فزادت عمارتها ، وتجددت معالمها . ولو سلمت من الاضطرابات والمجاعات وفداحة

الضرائب والظلم لسجل لها التاريخ صفحات غير هذه الصفحات . ومع كل هذا فقد وجد فيها الفارون الأمن والدعة .

٥ — حال اللغة العربية بعد سقوط بغداد : لم تقم فى العالم الإسلامى قبل سقوط بغداد بثلاثة قرون دولة عربية تستحق الذكر وإنما تولى الأمر أعاجم من الترك والفرس . ولو ضاعت اللغة العربية وزالت ما كان هذا عجيباً . ولكنه مع ذلك — لحكمة إلهية — ظلت باقية لأنها كانت لغة السياسة والدين والعلم . وكان لمصر والشام بالذات فضل كبير فى بقائها إذ كان زمام الأمر فيهما دائماً لأمراء أوملوك من العرب «سيف الدولة ، الفاطميين» ولما جاء المماليك اعتقدوا أن مما يزيد هيبتهم ويعمل على تقربهم من المسلمين العناية باللغة العربية فأبقوا عليها لغة رسمية للدولة ، ورفعوا من شأن ديوان الإنشاء . واهتموا بالحركة الأدبية والعلمية «التأليف» محتذين حذو الأيوبيين سادتهم . وعلى هذا ظلت اللغة العربية محتفظة برونقها وجمالها ، ثم سرى إليها الضعف بدخول كلمات فارسية وتركية فيها ، وانتشار اللغة العامية وتعضيد المماليك لها .

أسباب نهضة مصر فى ذلك العصر : مع ماذكرنا من الظلم والاضطرابات فقد كان بمصر نهضة لما يأتى .

١ — كثرة مابها من المدارس ، وقد ابتدأ فى إنشائها الأيوبيون ، وحذا المماليك حذوهم وكانت هذه المدارس تموج بالطلاب من مصر والشام وسائر البلاد الإسلامية يتناولون الرواتب والعطايا وضروب الإحسان من الأوقاف المحبوسة عليهم .

٢ — غيرة العلماء والأدباء على إعادة مجد الإسلام .

٣ — عطف المماليك والأمراء ورجال الدولة على العلم والعلماء .

٤ — عناية المماليك بإنشاء المكتبات وإقامة مجالس العلم الحافلة بأكابر العلمـــاء .

٥ — الرخاء وانتشار العمارة وزيادة الخيرات .

حال الشعر فى ذلك العصر

مقدمة : مال شعراء العصر العباسى وخاصة فى أواخره إلى الصناعة اللفظية فلما جاء عصر المماليك أفرط شعراؤه الأوائل فى تحلية أشعارهم بأنواع من البديع . واهتموا بالتلاعب بالألفاظ فى مهارة ولباقة ، حتى إنك تستطيع أن تسمى الشعر فى هذا العصر « شعر الألفاظ والزينة » ، ولما نضبت القرائح من الأفكار وجمدت العقول جمد الشعر وخلا من الابتكار وبخاصة فى أواخر عصر المماليك . ولكن ظل الشعر باقياً على الرغم من أن عوامل نهوضه قد زالت لما يأتى :

١ — الشعر فن جميل رفيع استحوذ على قلوب عدد من الشعراء ومالت إليه نفوسهم .

٢ — التنافس بين شعراء مصر والشام . وكان قوياً فإذا ابتدع شاعر مصرى شاردة أو أجاد قصيدة أسرع شاعر شامى ، وأخرج للناس مايحط من قيمة الأول ، ودعاهم ذلك إلى المعارضة بل إلى السرقة بعضهم من بعض ، ولكن ضعف الشعر ضعفاً عاماً لما يأتى :

١ — انصراف الأذهان عن دراسة الفلسفة والعلوم الكونية مما أدى إلى ضيق الخيال وضعف ملكة الابتكار .

٢ — زال تشجيع المماليك ،ولم يصبح هذا العهد عهد الصلات والعطايا ، ولم نجد من الأمراء والمماليك من اختص بشاعر أو شعراء . فانصرف الأدباء عنه إلى الكتابة فى الدواوين أو إلى الصناعات ، وكان منهم الجزار والكحال والحمامى والدهان .

٣ — سكتت أسباب اللهو والفراغ واقتصرت على المماليك فى قصورهم فلم تجد بلابل الشعر ميداناً تغرد فيه ، فقد امتاز هذا العهد بالجد والصرامة إزاء الشعب .

خصائص الشعر : (ا) فى الألفاظ والأساليب :

١ — الرقة والسهولة حتى لقد ينزل بعض الشعراء إلى مايقرب من لغة العامـــة .

٢ — تغلبت الصناعة اللفظية على الشعر وأغرم الشعراء بأنواع البديع واهتموا بالتورية والطباق والجناس والتضمين . وبالغوا فى ذلك إلى درجة أفسدت من أشعارهم .

٣ — وأدت العناية بالبديع إلى اختراع قصائد سميت « البديعيات » وهى قصائد على مثال البردة للبوصيرى فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم ، يشتمل كل بيت فيها على نوع من البديع ، وفيه إشارة إلى هذا النوع . وأول من نظمها « صفى الدين الحلى » فى كتابه « الكفاية البديعية ، فى المدائح النبوية » . ثم احتذاه : عز الدين الموصلى ، وابن حجة الحموى وغيرهما .

٤ — كذلك مالوا إلى نظم المقطوعات الصغيرة للتراسل بها أو لإظهار البراعة فى ابتداع لطيفة بديعية أو نكتة رائعة .

(ب) فى المعانى : قل فيها الاختراع وأصبحت معادة مكررة ولم تسلم من ضعف التصوير وتفاهة الخيال مع الاهتمام بكثرة التشبيهات والاستعارات ، وضعف إبرازهم للحكمة .

(حـ) فى الأغراض : اقتصرت أغراض الشعر على التافه منها : كالغزل وبخاصة فى المذكر والشكوى والمجون والرثاء والوصف الذى امتاز بضعف البراعة والابتكار ووصف الأشياء التافهة .

حال النثر

١ — النثر الأدبى الفنى : من العبث أن نبحث عن شىء طريف فى عصر المماليك ، فقد كان كتابه مقلدين لطريقة القاضى الفاضل تقليداً شديداً وأشدهم تحمساً لها القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر . وزادوا على

ذلك فأغرقوا فى الأشكال البديعة والتورية بمصطلحات العلوم . ولم يعد البديع عندهم وسيلة إلى التحسين ، بل أصبح غاية يُسعى إليها ، يلفقه الكاتب أو يتصيده . وبذلك أصبح النثر الأدبى عملا لفظياً يعنى فيـــه بالبرقشة لا بالمعانى ، وأدى ذلك إلى جمود الأساليب فى أواخر هذا العصر .

خصائصه (ا) فى الألفاظ والأساليب :

١ ـــ استخدام التورية فى النثر كما فعل محيى الدين بن عبد الظاهر .

٢ ـــ التورية بمصطلحات العلوم .

٣ ـــ الاقتباس من القرآن الكريم .

٤ ـــ تضمين النثر بعض أبيات الشعر .

٥ ـــ الاهتمام بالسجع والتقيد به متكلفاً ، وقد عد النقاد كل كتابة خالية منه كتابة غير أدبية .

٦ ـــ التجديد فى ألفـاظ التفخيم وألقاب التعظيم ، والأدعيـــة فى صدر الرسائل .

٧ ـــ الاهتمام بالجناس وابتداع الجناس المعكوس .

٨ ـــ دخول كثير من الألفاظ التركية والعامية وأساليب العوام وبخاصة فى آخر هذا العصر .

(ب) فى المعـانى : ١ ـــ العناية باللفظ جنت على العناية بالمعنى .

٢ ـــ اختفت المعانى وراء استعارة متكلفة ، أو تشبيه متعسف أو تورية مصطنعة .

٣ ـــ أصبحت المعانى تافهة لتفاهة الثقافة ، وانحطاط ماتخزنه عقول الكتاب من العلوم . .

(حـ) فى الأغراض : استخدمت الكتابة فى الأغراض الآتية :

١ ـــ تدبيج المنشورات والأوامر والرسائل السلطانية الصادرة عن ديوان الإنشاء .

٢ — المقامات الأدبية الوصفية المعتمدة على الخيال .

٣ — الموازنات والمفاخرات «مفاخرة بين السيف والقلم» لابن نباتة .

٤ — القصص الخيالية . ٥ — النقد الأدبى .

أسباب ضعف الكتابة فى هذا العصر

١ — انحطاط ثقافة الكتاب لقلة اطلاعهم واقتصار دراستهم على العلوم المنقولة ، فلم يهتموا بدراسة العلوم الكونية فجمدت قرائحهم .

٢ — ظهرت طبقة من النقاد لا ترضى إلا بالسجع ولا تحكم لكاتب بالتقدم إلا إذا تمكن من الصناعة الزخرفية فشغل بها الكتاب عن المعانى .

٣ — تشجيع المماليك والرؤساء على انتشار اللغة العامية — وبخاصة فى أواخر ذلك العصر حتى دون بها بعض العلماء كتبهم .

٢ — النثر العلمى : لم يسلم من العناية بالكتابة الأدبية والاهتمام بالسجع والعناية باللفظ ، وبذلك بعد عن التحقيق والتدقيق . ومن الكتب العلمية التى بنيت على السجع «عجائب المقدور ، فى نوائب تيمور» لابن عربشاه ، ومع ذلك فقد دونت فى هذا العصر أكبر الموسوعات العلمية حتى عد هذا العصر عصر تأليف . ومن أمثلة ذلك «مسالك الأبصار ، فى ممالك الأمصار» لابن فضل الله العمرى و «صبح الأعشى ، فى صناعة الإنشا» للقلقشندى و «نهاية الأرب ، فى فنون الأدب» للنويرى . . . وغيرها .

العصر العثمانى (٩٢٣ — ١٢٢٠ هـ)

حال الشعر : انحط الشعر فى ذلك العصر وأصبح خالياً من رائع المعنى أو بديع الصنعة لما يأتى :

١ — الحكام ترك لا يفهمون العربية ، ولا يقدرون الشعراء ، فانصرفوا كلية عن تشجيعهم .

٢ — نقل الأتراك كثيراً من العلماء والأدباء إلى بلادهم فركدت الحركة العلميـــة .

٣ — اضطراب الحياة وعدم اطمئنان الناس على نفوسهم .

٤ — ضعف الثقافة ضعفاً عاماً فقصرت الملكات وركد التفكير .

خصائصه (ا) في الألفاظ والأساليب :

امتلأ الشعر في هذا العصر بالألفاظ البذيئة وعجز الشعراء عن الإجادة في البديع وتخلفوا عن العصر السابق وصارت الأساليب أقرب إلى أساليب العوام وكثرت السرقات الشعرية .

(ب) في الأغراض : تفهت وانحطت وصار أهمها الغزل الصناعي والإخوانيات والألغاز ووصف الأشياء التافهة «كالسبحة والسجادة»

(حـ) في المعاني : لم تنحط إلى درجة أدنى ، وأكثر إسفافاً من هذه الدرجة التي وصلت إليها في هذا العصر . فإذا كان الشعراء قد عجزوا عن مجاراة من سبقوهم في البديع فما بالك في المعاني . إنها معاني العاجز عن الإلمام باللغة ومفرداتها والضعيف الملكات السقيم التفكير . وقد اخترع في هذا العصر لون من البديع هو «التاريخ» ، وهو أن يأتي الشاعر في البيت الأخير من قصيدته بجملة مسبوقة بأرخت ، أو أحد مشتقاتها يكون مجموع القيم العددية لحروف الجملة هو السنة التي حدثت فيها الحادثة التي يريد الشاعر التأريخ لها «عبد الله الشبراوي يؤرخ في رثاء أحمد الدلنجاوي» .

حال النثر : ضعف النثر للأسباب السابقة في الشعر . ولجعل اللغة التركية هي اللغة الرسمية وإلغاء ديوان الإنشاء — فانقطع أمل الكتاب في وظائفه وسطا الكتاب على كتابة الماضين يسرقوا منها ، ونسبوا ذلك إلى أنفسهم مما دعا بعض النابهين إلى تأليف كتب يسدون بها حاجة إخوانهم «بديع الإنشاء والصفات» ، في المكاتبات والمراسلات للشيخ مرعى

المتوفى سنة ١٠٣٠ هـ ، ومال القادرون إلى تغطية ركاكتهم وضعفهم بالمبالغة والتلاعب بالألفاظ وتكلف البديع . ونستطيع أن نقول :

إن عصرى المماليك والعثمانيين قضيا على كل ما كان للأدب من جمال وروعة ، فالآداب سندها تشجيع الأمراء والملوك . ولم يلق الأدباء أو الشعراء شيئاً من ذلك . أما العلوم فقد كتب لها بعض الرواج إذ أن سندها فوق التشجيع اعتقاد العالم أن عمله فى خدمة العلم نوع من العبادة ووسيلة من وسائل القربى إلى الله لما يرجو فى نشر علومه من الدعوة إلى الخير والهداية إلى الصراط المستقيم .

العصر الحديث

حال الأدب فى ذلك العصر

تمهيـــد : عاشت مصر والبلاد العربية تحت حكم المماليك والأتراك ، مايقرب من ثلاثة قرون ، كانت كلها ليلا ثقيلا من الظلم والحرمان والجهل حتى أصبحت اللغة العربية على وشك الفناء — كما سبق — لولا ذماء[1] يسير ظل الأزهر يحفظه بين تيارات الحياة المختلفة المتغيرة .

(١) ثم لاحت أضواء الفجر ، وظهرت طلائع النهضة الحديثة ، حين حمل نابليون معه الكثير من ألوان الحضـارة ، التى بدت غريبة أمام أعين المصريين والعرب ، والتى عرفتهم أن هناك حياة أخرى تموج بالعلم والمال والقـوة . فحركت فيهم دوافع النهوض ، وأنبتت فى صحراء حياتهم غـراس المعرفة ، وكانت هذه النهضة التى جددت مارث من حياتنا ، وأعادت ماذهب من مجدنـا ، وربطت بين المـاضى والحاضر ، واتجهت إلى مستقبل سعيد ، وغد مشرق زاهر .

لقد أنشأ نابليون المصانع ، وأصدر الصحف ، وأقام المدارس ، ومسارح التمثيل ، والمطابع ، ومكتبة عامة ، ومرصداً فلكياً ، ومجمعاً علمياً مصرياً . واستطاع المصريون أن يستفيدوا من ذلك كله ، وأن يضيفوا إليه الجيش القوى ، ودور العلم المتنوعة ، والبعوث العلمية التى أمدتهم بالخبرة الإدارية والتعليمية ، والتى ترجم رجالها الآثار الغربية فى مختلف الفنون ، فكانت خير زاد للنهضة الجديدة .

(٢) وقدر لهذه الحركة القوية أن تتعثر على يد عباس الأول وسعيد ، وكادت البلاد تعود إلى ظلمات عهد الأتراك . فقد أغلق عباس المدارس ، وعطل الصحف ، وأوقف البعثات ، ودمر المصانع ، وانتهى بالبلاد إلى جمود تام .

(٣) وجاء إسماعيل فوثبت مصر مرة أخرى ، وعادت النهضة أقوى

---

(١) الذماء : بقية الروح .

عما كانت ، فتدفقت على أوربا وفود الطلاب تنشد العلم والمعرفة ، وأقيمت المصانع ، وأنشئت المدارس وتنوعت ، واهتم المسئولون بتعليم البنات ، وساعدت دار الكتب على اتساع الحركة العلمية والأدبية ؛ وكثرت الجمعيات العلمية ، وأقيمت دور التمثيل ، واتجهت عناية كثير من المثقفين إلى نشر الكتب القديمة ، وتنوعت الصحف ، وأصبح لها أثر كبير فى النهوض بعقلية الأفراد وتكوين الجماعات المختلفة ، وانتشرت المطابع وتضخمت مهمتها ، فهى تطبع الكتب القديمة فى ثوب جديد ، وتخرج الكتب الأجنبية فى لباس عربى ، وتقدم مجلات مصورة . وظهرت مدرسة متحررة من قيود الاستعباد على يد السيد جمال الدين الأفغانى وتلاميذه ، فكانت منبعاً غزيراً يفيض بالتوجيه والإرشاد ، وينير العقول ، ويملأ القلوب إيماناً بالبعث العربى الجديد ثم كانت الثورة العرابية وما صحبها من تنبه الوعى القومى ، وظهور كثير من الخطباء والشعراء .

(٤) وفى هذا التيار الجارف من القوة والنهوض ، أصيبت البلاد بداء الاحتلال ، وتدخلت فى تصريف الأمور قوة جديدة هى قوة الاستعمار وعلى الرغم من أن هذه القوة كانت تقف ضد النهضة ، وتحاول بوسائلها وما أقواها وأكثرها ، أن تميت روح البعث الجديد . فقد ظل تيار النهضة يسير . وروافد الوطنية تمده بمصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وغيرهم من رجال العلم والأدب الذين تخرجوا من الجامعة المصرية والجامعات الأوربية : حتى قامت الثورة المصرية (١٩١٩) وأعلن دستور ١٩٢٣ وعرفت البلاد الحياة النيابية .

(٥) وإذا كانت ثورة ١٩١٩ لم تحقق أهداف مصر السياسية ، فإنها قد حركت الوعى الوطنى ، وأبرزت خصائص دولة فتية مؤمنة بعروبتها ، دولة ظهر فيها الكثير من نوابغ الفكر العربى ، وتنوعت فنون الأدب ، واستقرت على أسس مذهبية واضحة ، وتكونت مدارس أدبية ، وتميزت خصائص كل فن ، وأصبح الناقد الأدبى قادراً على أن يضع الإنتاج القصصى أو الصحفى

أو الخطابى فى ميزان أمين دقيق ، وأن يُرجع كل إنتاج فنى إلى أصوله ، ويحلل ما أحاط به من عوامل ، ثم يوضح ما انتهى إليه من نتاج تأثرت به الحياة كلها ، أو تأثرت به ناحية أو أكثر من نواحى هذه الحياة .

وبعد : فأنت فى حاجة كبيرة ، إلى أن تضع أمام عينيك دائماً هذه الخطوط العريضة للحياة السياسية والثقافية فى العصر الحديث — حين تريد أن تلم بخصائص الفنون الأدبية فى هذا العصر — وقد رأيت هذه الفترات الخمس التى لونت الأدب بألوانها . وأنت قبل كل شىء تعلم أن العصور الأدبية متداخلة ، وأنك لا تستطيع أن تضع حدوداً فاصلة بين فترة وأخرى والأمر كله يرجع إلى رغبتنا فى تسهيل الدراسة على الطالب .

وسنقدم لك نماذج فى فنون الأدب المختلفة ، وسنحاول برغم اختصارنا لهذه النماذج أن ندرس فى ظلالها الخصائص المميزة لكل فن : مستعينين فى ذلك بالنتاج الأدبى للعصر كله ، حتى يكون حكمنا أصدق ، ورأينا أقرب إلى الحقيقة التى هى غايتنا الأولى .

النثر

(ا) النثر العلمى

(١)

كتب الجبرتى يصف لوناً من الضرائب التى فرضها الفرنسيون على الأملاك فقال :

(فى يوم السبت ١٠ جمادى الأولى عملوا[١] الديوان ، وأحضروا قائمة مقررات الأملاك والعقار فجعلوا على الأعلى[٢] ثمانية ريالات ، والأوسط ستة ، والأدنى ثلاثة ، وما كان أجرته أقل من ريال فى الشهر فهو معافى ، وأما الوكائل والخانات والحمامات والمعاصر والسيارج والحوانيت ، فمنها

---

(١) عملوا : عقدوا (٢) الأعلى : ما كان فى المرتبة الأولى .

ماجعلوا عليه ثلاثين أوأربعين بحسب الخسة والرواج والاتساع ، وكتبوا بذلك مناشير على عادتهم وألصقوها بالمفارق والطرق ، وأرسلوا منها نسخاً للأعيان ، وعينوا المهندسين ومعهم أشخاص لتمييز الأعلى من الأدنى وشرعوا فى الضبط والإحصاء ، وطافوا ببعض الجهات لتحرير القوائم وضبط أسماء أربابها) .

الكاتب : هو المؤرخ المشهور عبد الرحمن الجبرتى ، أصله من جبرت فى الحبشة ، درس فى الأزهر ، وعين كاتباً فى الديوان أيام الفرنسيين ، وقد عاصر أهم الحوادث فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، وكان لذلك أثر كبير فى كتابه (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) المعروف باسم تاريخ الجبرتى ، وقد توفى سنة ١٢٤٠ هـ .

تعليق :

١ — هذا أسلوب فى صورة واضحة من الضعف والركاكة واستعمال الكلمات العامية مثل (عملوا — مناشير — الوكائل) الخ . وهو مثل لانحطاط لغة التأليف فى هذه الفترة .

(٢) اشتراكية الإسلام

للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

(فرض الإسلام للفقراء فى أموال الأغنياء حقاً معلوماً يفيض به الآخرون على الأولين سداً لحاجة المعدم ، وتفريجاً لكربة الغارم ، وتحريراً لرقاب المستعبدين ، وتيسيراً لأبناء السبيل . ولم يحث على شىء حثه على الإنفاق من الأموال فى سبيل الخير . وكثيراً ما جعله عنوان الإيمان ، ودليل الاهتداء إلى الصراط المستقيم . فاستل بذلك ضغائن أهل الفاقة ، ومحص[1] صدورهم من الأحقاد على من فضلهم الله عليهم فى الرزق . وأشعر قلوب أولئك محبة هؤلاء . وساق الرحمة فى نفوس هؤلاء على أولئك البائسين .

---

(١) محص : خلص .

فاستقرت بذلك الطمأنينة فى نفوسهم أجمعين . وأى دواء لأمراض الاجتماع أنجع من هذا ؟ « وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم »)

الكاتب : الإمام محمد عبده علم من أعلام الإصلاح فى مصر . تعلم فى الأزهر، ولما جاء جمال الدين الأفغانى إلى مصر لزمه وأصبح ألمع تلاميذه . اشترك فى الثورة العرابية ونفى إلى الخارج ، وشارك أستاذه فى إصدار مجلة العروة الوثقى فى باريس ، ولما عاد إلى مصر اشتغل بالقضاء . ثم عين مفتياً للديار المصرية وعضواً فى مجلس إدارة الأزهر ، وله فضل كبير فى النهوض بهذا المعهد العلمى الجليل . ومن كتبه (رسالة التوحيد) ومنها الجزء الأول الذى اخترناه ، (العلم والمدنية فى الإسلام والنصرانية) وتفسير جزء عم . وقد قضى عمره مرشداً مصلحاً وتوفى سنة ١٩٠٥ م .

تعليـق :

هذا أسلوب علمى مرسل لاسجع فيه ولا تكلف ، وفيه تعليل وتحليل فهو يبين الأسباب التى فرض الإسلام من أجلها حقاً للفقراء فى أموال الأغنياء ، ثم هو يحلل النتائج التى تترتب على ذلك .

وأسلوب الإمام تطور فى ثلاث مراحل ، فكان أول حياته يكتب بأسلوب العصر التركى ، ثم تخلص من السجع تدريجاً حتى وصل إلى مرحلة الترسل التى قدمنا لك منها هذا النموذج العلمى .

٥ — ارتياد البحار

للدكتور حسين فوزى

(ارتياد البحار عنوان يتسع لمعانى كثيرة كلها تدور حول التجوال فى البحر ، ولو أن كلمة ارتياد تحمل — فى الاستعمال العصرى — معنى السياحة لغرض الاستكشاف . وما يقصد إليه حديثنا هذا هو ارتياد البحار لغرض بحثها بحثاً علمياً ، والكشف عن مخبآتها من حيوان أونبات أو جماد . ولكى نستطيع تقدير مثل هذا الارتياد حق قدره ينبغى أن نعرف للبحار قيمتها

للعمران ومركزها فى الحضارة .

والبحار أو المحيطات أحواض هائلة من الماء تتصل ببعضها البعض ، وتشغل أكثر من ثلثى الكرة الأرضية ، وتفصل بين القارات . وبينما لا يتعدى ارتفاع الأرض فى أقصاه بجبال الهيمالايا ٨٨٠٠ مترا ، فإن بالبحار مناطق يتعدى عمقها ١٠٠٠٠ مترا ومتوسط ارتفاع اليابسة ٧٠٠ مترا يقابله متوسط عمق البحار وقدره ٣٦٠٠ مترا .)

(٤) العيون الزرقاء

للأستاذ حسن عبد السلام

(إن جميع أنواع العيون : أى العيون السوداء ، والعيون العسلية والخضراء والزرقاء لا تحتوى إلا على نوع واحد من الخلايا الملونة (Piǝmest) ألا وهى الخلايا السوداء اللون ، وإنما يرجع السبب فى اختلاف ألوان العيون إلى احتلاف مقادير هذه الخلايا السوداء وكيفية توزيعها فى قزحية العين . ففى العيون السوداء توجد الخلايا الملونة السوداء فى كل من الطبقات الخلفية والأمامية للقزحية ، أما فى العيون الزرقاء فتوجد الخلايا السوداء فى الطبقة الخلفية فقط ولا يوجد منها شىء فى الطبقة الأمامية . الخ)

(٥) العناصر والمركبات . الذرات والجزيئات

للدكتور على مصطفى مشرفة

(قسم دالتون وأتباعه المواد التى نعرفها جميعاً إلى قسمين : وهما العناصر والمركبات ، وجعلها تتألف من ذرات العناصر مجتمعة على هيئة جزيئات ، فالماء مثلا : وهو أحد المركبات مؤلف من جزيئات الماء وكل جُزىء من جزيئات الماء مؤلف من ذرتين من ذرات عنصر الأيدروجين وذرة من ذرات عنصر الأوكسجين ، والأوكسجين الذى هو أحد العناصر مؤلف كذلك من جزيئات ، إلا أن كل جزء فى هذه الحالة إنما يتألف من ذرتين متشابهتين من ذرات عنصر الأوكسجين .

بهذه الطريقة تمكن دالتون وأتباعه من إرجاع جميع المواد التى كانت معروفة عندئذ إلى نيّف وسبعين عنصرا ، لكل واحد منها ذرة خاصة ، أى أن العالم المادى بأسره قد أمكن تصوره على أنه مبنى على نيف وسبعين نوعاً من أنواع الذرات . وقد زاد هذا العدد حتى وصل فى الوقت الحالى إلى ثلاثة وتسعين عنصراً .)

تعليق :

١ — من الواضح أن كلا من الكتاب الثلاثة يهدف إلى المعارف ويتجه إلى العقول ليقدم لها معلومات مركزة . وهو لهذا يستعمل الأسلوب السهل الواضح ما أمكن .

٢ — يكثر من الاصطلاحات والتعبيرات الفنية ومقصده من ذلك الدقة وتحديد ما يقول تحديداً علمياً .

٣ — وطبيعى ألا يعمد الكاتب إلى أى لون من ألوان التكرار التعبيرى أو أى صورة من صور البلاغة ، فهو لا يهدف إلى المتعة الفنية بل يهدف إلى الزاد العقلى والعلمى .

٤ — حدد الكاتب الفكرة ولم يحاول أن يخرج عن دائرتها بل قصد إليها مباشرة دون أى وساطة ، ودون أى تلوين عاطفى للفكرة .

خصائص النثر العلمى

النثر العلمى فى العصر الحديث نوعان :—

١ — النوع الأول : الكتب التى تتناول مختلف العلوم والفنون ، وقد تطورت لغة تأليف هذه الكتب فى مراحل ، نوجز لك خصائصها فى كل مرحلة :—

الفترة الأولى : سارت لغة التأليف فى هذه الفترة على النحو الذى كان شائعاً فى العصر التركى ، فجاءت سقيمة فيها كثير من الغموض وتعقيد العبارة

والجدل اللفظى كما فى المتون وشروحها ، وفيها اهتمام بالغ بالسجع حتى فى العناوين : « مظهر التقديس ، بذهاب دولة الفرنسيس » للجبرتى و « الصحة التامة ، والمنحة العامة » لمحمد بدر افندى . كما شاع فيها اللحن واستعمال الألفاظ العامية « الجبرتى » . ولم تسلم الكتب المترجمة فى هذه الفترة من الضعف والركاكة ، فلم يعمل فيها أصحابها يد الصقل والتهذيب ، فجاءت عبارتها غير مفهومة ويرجع السبب فى ذلك إلى حداثة الحركة الفكرية من جهة ، وإلى تعثرها فى خطاها أيام حكم عباس الأول وسعيد اللذين أغلقا كثيراً من المدارس ، وقضيا على كل حركة فكرية .

أما الموضوعات التى تناولتها الكتب العلمية فى هذه الفترة ، فقد كانت ضيقة الحدود لا تتجاوز المتون الأزهرية فى اللغة والشريعة ، والشروح التى تناولت تفسير هذه المتون ، ولما عاد أعضاء البعثات العلمية الأولى ترجموا كتباً فى الفنون العسكرية والصيدلة والطب والرياضيات .

الفترة الثانية : بدأت لغه تأليف الكتب العلمية تتقدم نتيجة لكثير من العوامل التى ستدرسها بعد ذلك والتى تتلخص فى ظهور جماعة من النقاد دعوا إلى التحرر من قيود الأسلوب ، وعلى رأسهم جمال الدين الأفغانى ، وانتشار الثقافة بإعادة فتح المدارس وإنشاء مدارس جديدة ، وبظهور الصحافة وانتشار المطابع وإحياؤها بعض الكتب العلمية والأدبية القديمة « الحيوان للجاحظ ، والأغانى ، والعقد الفريد » وعودة المبعوثين إلى الخارج ووضع الكتب التى ترشد إلى الكلمات الصحيحة التى تحل محل العامى أو الدخيل . كل هذه العوامل ساعدت على وجود طبقة من المؤلفين الأدباء الذين تعد كتاباتهم نموذجاً للأسلوب البليغ .

وكان لهذه العوامل أثر كبير فى فى خصائص لغة التأليف فتخلصت من السجع والألفاظ العامية ومن اللحن الكثير ، ومالت إلى السهولة والربط بين أجزاء الكلام مع الاهتمام بالمعنى « اشتراكية الإسلام للشيخ محمد عبده » .

أما موضوعات هذه الفترة فقد زاد تأليف الكتب فى الفنون المترجمة التى ظهرت فى أواخر الفترة السابقة ، الفنون العسكرية — الطب — الصيدلة — الرياضيات ، وظهرت فى آخرها كتب فى القانون والسياسة والاقتصاد . وأدى ذلك إلى ظهور مؤلفات لغوية تجمع مفردات كل علم كما سيأتى فى الترجمة .

الفترة الثالثة : جاءت هذه الفترة وقد تم إنشاء الجامعة المصرية ووجدت طبقة من المؤلفين الأدباء واتسعت الثقافة اتساعاً عظيماً بإقبال المصريين على البحث والدرس وبالفيض العظيم الذى نقلناه من الثقافة الأجنبية وكثر المتخصصين فى العلوم والفنون المختلفة وهم أقدر من غيرهم على التأليف فيما تخصصوا فيه ، كذلك أخذ العلماء المصريون عن الأجانب طريقة البحث العلمى .

أدت كل هذه العوامل إلى أن استقامت لغة التأليف وتخلصت نهائياً من كل العيوب . واتجهت نحو السهولة والوضوح ، والدقة فى اختيار الألفاظ الاصطلاحية . وقل جداً استعمال الألفاظ الدخيلة إلا عند الضرورة وأصبح المؤلف يقسم كتابه إلى أبواب والأبواب إلى فصول ، ويرتب عناصر الفصل الواحد ترتيباً متناسقاً ويضع الفهارس لكتابه . وهذا واضح فى الكتب العلمية التى بين أيدينا اليوم .

أما الموضوعات فقد شملت كل نواحى الحياة . وفى المكتبات اليوم كتب فى التربية وعلم النفس والاجتماع والاقتصاد السياسى والموسيقى والرسم والتصوير والمسرح وغير ذلك .

(ب) النوع الثانى : المقالة العلمية . وهى تتناول موضوعات مفردة مختارة فى كثير من نواحى العلوم والفنون . تنشرها الصحف والمجلات ، وهذا اللون حديث العهد لا يكاد يتجاوز أوائل القرن الحاضر ، وقد نهض اليوم نهضة كبيرة وأصبحت له بعض مجلات خاصة لا تنشر سواه ، صحيفة

التربية ــ مجلة علم النفس ــ الدكتور ــ مجلة المهندسين » .

وتمتاز المقالة العلمية بالسهولة والوضوح والإطناب لأنها تكتب لجمهرة المثقفين ، ولا يعمد كاتبها إلى الحرص على المصطلحات ، بل يميل إلى تنميق العبارة والقصد فى استعمال مصطلحات العلم « منخفض القطارة ــ رحلة فى الفضاء من المطالعة الوافية » .

وبعد : فلعلك لاحظت من النماذج التى قدمناها لك أن العلوم العصرية نوعان :

علوم تجريبية : كالطبيعة والحيوان والطب « العناصر والمركبات ــ العيون الزرقاء » وعلوم نظرية : كالتاريخ والتوحيد والفلسفة والجغرافيا وما شاكلها « الجبرتى ــ محمد عبده ــ ارتياد البحار » . وقد كانت النهضة العلمية تهتم أولا بالعلوم التجريبية لشدة الحاجة إليها ، ثم اتجه الاهتمام بعد ذلك إلى العلوم النظرية ، وهناك فرق بين أسلوب كل نوع .

وكتب العلوم التجريبية كانت عالة على اللغات الأجنبية فى عبارتها ومصطلحاتها ، ورغم أنها تقدمت فى الفترة الأولى إلا أن الاحتلال أوقف تيار تقدمها قليلا إذ أوجب تدريسها باللغة الأجنبية فانقطعت صلتها باللغة العربية . ولكن لما استردت اللغة العربية مكانتها فى المدارس وأصبحت لغة التدريس . عادت اللغة العربية إلى المؤلفات ، ودرست هذه العلوم بها . ولقد بذلت الجامعات مجهوداً يشكر فى تعريب الموسوعات العلمية التى تدرس بها . وإن كان بعضها لايزال يدرس بلغته الأجنبية كما فى الطب والهندسة والصيدلة .

وأما كتب العلوم النظرية ، فأسلوبها يهدف إلى حسن العرض وجمال العبارة ، والعناية بالتبويب والترتيب والتنسيق ، والفضل فى ذلك يرجع إلى أن صلتها باللغة العربية لم تنقطع كما حدث فى العلوم التجريبية .

« هناك فروق واضحة بين الأسلوبين : العلمى والأدبى . ارجع إليها فى كتاب الضياء فى النقد والبلاغة » .

النـــثر الفني

النثر الأدبي

(١)

كتب الشيخ حسن العطار إلى صديقه يهدى إليه سلامه ، ويصف خلقه وبيانه :

أما بعد : فإن أحسن وشى[١] رقمته الأقلام ، وأبهى زهر تفتحت عنه الأكمام[٢] عاطر سلام يفوح بعبير المحبة نفحه[٣] ، ويشرق فى سماء الطروس صبحه[٤] .

سلام كزهر الروض أو نفحة الصَّبا

أو الراح تجلى فى يد الرشـــأ الأقنى[٥]

سلام عاطر الأردان[٦] تحمله الصبا على الرَّند والبان[٧] ، إلى مقام حضرة المخلص الوداد ، الذى هو عنـدى بمنزلة العين والفؤاد . صاحب الأخلاق الحميدة ، وحلية الزمان التى حلى بها ، مِعْصَمَه وجيده[٨] .

الكاتب :

هو الكاتب الشاعر العالم الشيخ حسن العطار . تعلم فى الأزهر . وأكب على كتب الأدب فأصاب منها حظاً عظيما ، ثم اتصل بالفرنسيين ونال نصيباً من العلوم العصرية . ثم ساح فى البلاد العربية ، ولما عاد إلى مصر تولى تحرير (الوقائع المصرية) وله كتاب (إنشاء العطار) وتوفى سنة ١٨٣٤ .

---

(١) الوشى : النقش . (٢) الأكام : جمع كم (بالكسر) وهو وعاء الطلع وغطاء الزهر . (٣) العبير : خليط من أطياب له رائحة ذكية . (٤) الطروس : جمع طرس وهو ورق الكتابة . (٥) الراح : الخمر . والرشأ : ولد الظبية والمراد هنا الساقى الرشيق . والأقنى : المرتفع أعلى الأنف مع حدب وسطه وطول طرفه . (٦) جمع ردن وهو أصل الكم (٧) من أشجار البادية (٨) موضع القلادة من العنق .

تعليق :

١ — هذه رسالة التزم فيها كاتبها السجع والمحسنات البديعية كأثر من آثار العصر التركى فى اللغة والأدب .

٢ — ليس فيها مع ذلك تكلف ، وألفاظها خالية من الضعف ، ومعانيها بعيدة عن الغموض .

٣ — الرسالة من الكتابة الإخوانيـــة ، التى ظلت مقيدة بقيود العصر التركى .

(٢)

كتب السيد رفاعة الطهطاوى يصف مصر :

« لا يشك أحد أن مصر وطن شريف ، إن لم نقل إنها أشرف الأمكنة . فهى أرض الشرف والمجد فى القديم والحديث . وكم ورد فى فضلها من آيات بينات وآثار وحديث . فما كأنها إلا صورة جنة الخلد ، منقوشة فى عرض الأرض بيد الحكمة الإلهية ، التى جمعت محاسن الدنيا فيها ، حتى تكاد أن تكون حصرتها فى أرجائها ونواحيها . بلدة معشوقة السكنى . رحبة المثوى[١] حصباؤها[٢] جوهر . وترابها مسك أذفر[٣] . يومها غداة ، وليلها سحر[٤] » .

الـكاتب :

هو أحد العلماء الأدباء . ولد فى طهطا سنة ١٨٠١ تعلم فى الأزهر ، ثم سافر إلى باريس فى أول بعثة تعليمية سافرت إلى الخارج . وجمع إلى الثقافتين العربية والفرنسية الطموح والاتجاه إلى الإصلاح . وخص النهضة العلمية بكل جهوده ، فألف وترجم وعلمّ ، وخرّج جيلا نافعاً كان له

---

(١) المثوى : محل الثواء أى الإقامة (٢) الحصباء : صغار الحصا

(٣) الأذفر : الشديد الرائحة (٤) يومها غداة : أطيب اليوم غداته أى أوله . وأطيب الليل سحره أى آخره .

أثر كبير فى نهضة البلاد . ومن كتبه « تخليص الإبريز إلى تلخيص باريز » « مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية » . وغيرهما . توفى سنة ١٨٧٣ م .

تعليق :

يلتزم الكاتب السجع ويتلمس البديع . ولكنه أقل اقتداراً على السجع من العطار فقد خانته السجعة فى بعض الأحيان ، وبخاصه فى أول القطعة . وطالت معه الفقرة أحياناً وقصرت أختها . وأحياناً أخرى تطول الفقرتان معا حتى ينسى القارىء السجع ثم يفاجأ به دون توقع .

(٣)

من مزايا الإسلام للسيد جمال الدين الأفغانى : —

« من مزايا الإسلام : صقْل(١) العقول بصقال التوحيد . وتطهرها من لوث(٢) الأوهام . فمن أهم أصوله : الاعتقاد بأن الله منفرد بتصريف الأكوان ، متوحد فى خلق الأفعال . وأن من الواجب طرح كل ظن فى إنسان أو جماد يكون له فى الكون أثر من نفع أو ضر . أو إعطاء أو منع . أو إعزاز أو إذلال . أو نحو ذلك من خرافات كل واحدة منها كافية فى إعماء العقول وطمس أنوارها .

ومنها : أن الإسلام فتح أبواب الشرف للأنفس كلها ، وأثبت لكل نفس الحق فى السموّ . وَمَحَق(٣) امتياز الأجناس ، وتفاضل الأصناف . وقوم الناس بالكمال العقلى والنفسى . فالناس إنما يتفاضلون بالعقل والفضيلة لا بأى شىء آخر ، وقد لانجد من الأديان الأخرى مايجمع أطراف هذه القاعدة » .

الكاتب :

هو إمام الحركة الإصلاحية فى الشرق ، ولد فى (سعد آباد) ببلاد

---

(١) صقل المرآة : جلاها (٢) لوث : تلويث (٣) محق : محا وأزال .

الأفغان وتلق علومه فى (كابل) وظهرت شخصيته فى مدى قصير، ثم رحل إلى الهند فازداد ثقافة دفعته إلى محاولة النهوض بالشرق. ولما نزل مصر التف حوله الأدباء، وكون له مدرسة تؤمن بتعاليمه ثم لعبت الدسائس دورها فأبعد عن مصر والتقى بتلميذه محمد عبده فى (باريس) وهناك أصدرا مجلة (العروة الوثقى) بالعربية والفرنسية، يدعوان فيها المسلمين إلى الاتحاد والتحرر. وتقلبت عليه الأحوال حتى انتهى إلى الآستانة فعاش فيها معروف المكانة إلى أن وافته منيته فى سنة ١٨٩٧ م

تعليق :

١ — هذا هو أسلوب الترسل الذى نشره فى البلاد العربية، السيد جمال الدين، وحاول به القضاء على السجع المتكلف، والبديع الذى يسعى إليه الكاتب بكل وسيلة.

٢ — وقد أخذ تلاميذه فى محاكاته، وإن لم يخل أسلوبهم فى أول الأمر من بقايا سجع أو بديع.

٣ — إنما اتجه جمال الدين الأفغانى إلى أسلوب الترسل وأهمل السجع والبديع لأنه مصلح اجتماعى وثائر سياسى. وكلاهما يعتمد على الوضوح وتحليل الفكرة ولا حاجة بهما إلى زينة.

(٤)

قال قاسم أمين فى كتابه (تحرير المرأة) : —

«إن طبيعة العصر الذى نحن فيه منافرة للاستبداد، معادية للاستعباد، ميالة إلى سوق القوى الإنسانية فى طريق واحدة، وإلى غاية واحدة. فهذا الطائف الرحمانى الذى طاف على نفوس البشر، فنبه منها ما كان غافلا، لا بد أن ينال منه النساء نصيبهن. فمن الواجب علينا أن نمد إليهن يد المساعدة، ونعمل معهن بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اتقوا الله فى الضعيفين المرأة واليتيم) ولا شىء أدخل فى باب التقوى من تهذيب العقل، وتكميل النفس واعدادها بالتعليم والتربية، إلى معرفة النافع،

ومدافعة الرذائل ، ومقاومة الشهوات . ولا من حسن المعاملة ، واللطف فى المعاشرة . فعلينا أن نجعل الصلة بيننا وبينهن صلة محبة ورحمة ، لا صلة كره وقسوة . هذا ما تفرضه علينا الإنسانية ، وتطالبنا به الشريعة ، وهو مع ذلك فريضة وطنية يجب علينا أداؤها » .

الكاتب :

قاسم أمين من زعماء الإصلاح الاجتماعى ، كان قاضياً أديباً ، تعلم فى مصر وأتم دراسته فى أوربا ، ولما عاد اشتغل بالقضاء ووصل فيه إلى وظيفة مستشار بمحكمة الاستئناف . كثير التفكير فى أحوال المرأة المصرية ، ورأى كثيراً من الناس يؤمنون برأيه ، لكنهم يخافون الرأى العام ، فتقدم ونشر كتابه (تحرير المرأة) فأحدث دوياً فى الأمة العربية كلها ، وانقسم الناس أمامه إلى مؤيدين ومعارضين ، وكانت الصحافة ميدان الفريقين . ثم أصدر كتاباً آخر اسمه (المرأة الجديدة) . وكل ما وصلت إليه المرأة العصرية من تقدم مدينة فيه لقاسم أمين . توفى سنة ١٩٠٨ م .

تعليق :

١ — هذا أسلوب أدبى اجتماعى ، يدعو إلى إصلاح وضع من أوضاع المجتمع ، هو تحرير المرأة وتعليمها .

٢ — ومثل هذا الأسلوب لابد فيه من الترسل والبعد عن المحسنات ، التى تقيد الكاتب وتبعده عن الفكرة .

٣ — يعمد الكاتب هنا إلى العبارة الرصينة ، والحجة القوية ، فهو يستدل بالأحاديث النبوية ، بالعقل والمنطق ، ويبتعد عن كل ما يقيده من ألوان الزخرف القديم .

٤ — مثل هذا الأسلوب تطور طبيعى لأسلوب جمال الدين الأفغانى ، وهو بداية قوية موفقة لأسلوبنا اليوم فى كل ما يتعلق بشأن من شئون الحياة الاجتماعيه الحديثة .

٥ ـ الرحمة

(للسيد مصطفى لطفى المنفلوطى)

(سأكون فى هذه المرة شاعرا بلا قافية ولا بحر ، لأنى أريد أن أخاطب القلب وجهاً لوجه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا سبيل الشعر .

أيها الرجل السعيد . كن رحيما . أشعر قلبك الرحمة . ليكن قلبك الرحمة بعينها . ستقول إنى غير سعيد ، لأن بين جنبي قلبا يلم به من الهم مايلم بغيره من القلوب ، أجل . فليكن ذلك كذلك . ولكن أطعم الجائع ، واكس العارى ، وعز المحزون ، وفرج كربة المكروب ، يكن لك من هذا المجموع البائس خير عزاء يعزيك عن همومك وأحزانك . ولا تعجب أن يأتيك النور من سواد الحلك(١) . فالبدر لا يطلع إلا إذا شق رداء الليل ، والفجر لا يدرج إلا من مهد الظلام .

لقد بليت اللذات كلها ، ورثت (٢) حبالها . وأصبحت أثقل على النفس من الحديث المعاد . ولم يبق مايعزى الإنسان عنها إلا لذة واحدة . هى لذة الإحسان .)

الكاتب :

ولد فى منفلوط ، وتعلم فيها مبادىء القراءة والكتابة وحفظ القرآن ، ونسب إليها . ثم وفد على الأزهر ووجد من نفسه حبا للأدب وإقبالا على كتبه . وصرفه ذلك عن غيره من كتب الأزهر ، ثم اتصل بالشيخ محمد عبده وبسعد زغلول ، واشتغل فى نظارة المعارف ثم فى نظارة الحقانية ، واختير فى (سكرتارية البرلمان) . وكان أديباً ذا حس مرهف وعاطفة رقيقة يتخير اللفظ ، ويتغنى بأسلوب موسيقى حزين فيه آهات صادقة ، وشقاء معذب بما فى دنيا الناس من آلام . ومن كتبه (العبرات ـ والنظرات وماجدولين ، والفضيلة) . وقد توفى فى العقد الخامس من عمره سنة ١٩٢٤ م .

---

(١) الحلك : شدة السواد (٢) رثت : بليت .

تعليق :

١ — هـذه قطعة من الأدب الوصفى . لـكنه وصف معنوى ، يتجه إلى الوجدان ، ويحلق فى سماء الخيال ، ويتخير الألفاظ الرقيقة ويرتبها فى توقيع موسيقى ، لم يتكلف فيها محسناً أو زخرفا ، لـكن الجمال فيها لاحد له ، ينبع من ألوان العواطف وصور الخيال . (فالقلب هو الرحمة نفسها — والبدر لا يطلع على الناس إلا إذا مزق رداء الليل — ومهد الظلام طريق يلوح فيه ضياء الفجر .)

٢ — هكذا يجب أن يكتب كل أديب . فى أداء قوى ، وتصوير بديع وتوقيع على مشاعر النفس ، وعواطف القارىء ، وامتزاج بالفـكرة حتى تصبح لونا من ألوان القلب الذى يصورها .

خصائص النثر الأدبى

١ — هو أولى أنواع النثر بالعبارة الجميلة والفـكرة القوية ليكون أوقع فى النفس ، وأقرب إلى القلب ، وهو أقرب ألوان النثر إلى الشعر ، ولهذا لا ينكر فيه الزخرف الخفيف ، ولا الأناقة والرقة والاصطفاء من مفردات اللغة اصطفاء أقرب إلى الطبيعة النقية الواضحة .

٢ — يعتبر النثر الأدبى بعد الحملة الفرنسية وفى عصر محمـد على وشطر كبير من عصر إسماعيل امتداداً للنثر فى العصر التركى ، ولهذا لم يتحلل من خصائصه القديمة إلا بمقدار يسير .

فهو من ناحية الموضوع ، يكاد يقتصر على لون واحد ، هو الرسائل الإخوانية . وقد ظلت هذه الرسائل ترسف فى قيود النثر التركية . ولم يقدر لها أن تنهض كالرسائل الديوانية التى دفعتها الوقائع المصرية واختيار محرريها ومصححيها إلى الأمام . ولا كافه التأليف التى تفرغ لها كثير من المترجمين ، وهو من ناحية الأسلوب مقيد بالسجع والمحسنات البديعية ، والألفاظ

الثقيلة أحياناً أو العامية أحياناً أخرى ، وإن خلا كل ذلك من التكلف —
وسبب ما تقدم : —

ا — ضعف الاستعداد الطبيعى عند الأدباء ، ولا عجب فهم تلاميذ العصر التركى .

ب — أن محمد على كان يهتم بالجيش ثم بالنهضة العلمية ، ولم يكن للحياة الأدبية نصيب فى برنامجه .

٣ — فى أواخر عصر إسماعيل حدث تطور كبير فى النثر الأدبى :

فالموضوعات قد تنوعت ، ورأينا النثر يتناول الحياة (الاجتماعية) ، ويناقش (الأمور السياسية) فى (الصحف) أو فى (خطب) تلقى فى مجتمعات عامة . (ويصف) مظاهر الحياة المتعددة — إلى جانب الرسائل الإخوانية التى كانت هى كل الأدب فى الفترة الأولى وظهر بذلك النثر الاجتماعى والصحفى والخطابى إلى جانب النثر الأدبى .

والأسلوب : ا — قد تحرر من السجع المتكلف ، والزخرف الذى يسيطر على الكاتب . ومن الضعف وإن وجد شىء من ذلك فهو قليل . وقد يوجد السجع أو الزخرف فى غير ماتكلف أو سعى .

ب — بدأت المعانى تأخذ حظها من القوة والهدف والعناية .

وأسباب هذا التطور فى عصر إسماعيل : —

ا — الاتصال بأوربا : فقد عاد أعضاء البعثات العلمية التى سافرت فى أيام محمد على . وكان أثرهم بارزاً فى ناحيتين : الأولى : ترجمة الكتب الأوربية . وهى وإن غلبت عليها الناحية العلمية لا الأدبية ذات أثر فى أسلوب الكاتب — والثانية : الشعور بالحرية الشخصية التى وجدوها فى أوربا وبثوها فى نفوس المصريين بعد عودتهم . وكان من نتيجتها أن تحررت العقول من العادات القديمة والتقاليد البالية . ووقفت على مظاهر الحضارة الحديثة .

ب — إنشاء الجمعيات العلمية والأدبية والسياسية فى مصر وفى غيرها من البلاد العربية مثل (الجمعية السورية) التى أنشئت فى بيروت (١٨٤٧). وجمعية (المقاصد الخيرية) (بيروت ١٨٨٠) (والجمعية الخيرية الإسلامية) التى أنشئت فى الإسكندرية(١٨٧٨) . وغير ذلك من الجمعيات التى أنشئت فى حمص وحلب وطرابلس الشام ، وساعدت على ظهور الأدب الخطابى .

حـ — ادخال فن (التمثيل) فى مصر حين افتتحت دار الأوبرا عند افتتاح قناة السويس .

ى — إنشاء المكتبات العربية والمتاحف الإسلامية : فقد أتاح ذلك للأدباء فرصة الاطلاع والقراءة .

هـ — انتشار الصحافة : فقد تعددت الصحف وكثرت أنواعها . وساعد على ذلك كثير من السوريين الذين هاجروا إلى مصر فراراً من ظلم الأتراك فى الشام أو طمعاً فى الكسب . وكان لهم أثر كبير فى هذه الناحية .

و — كثرة المطابع : وعناية المختصين بإخراج الكتب القديمة فى ثوب جديد ، وطبع كثير من الكتب المترجمة .

ز — كثرة المدارس وتنوعها ، وتخرج كثير من أبنائها ، مع العناية بالنهضة العلمية .

٤ — ثم جاءت مرحلة ثالثة فى بداية القرن العشرين ، زاد فيها النثر الأدبى تنوعاً فى الموضوعات ، وتعدداً فى الأهداف ، ورقياً فى الأسلوب ، وتخلصاً من شوائب الماضى .

والأسباب التى سبقت فى عصر إسماعيل وتوفيق ، كانت قد تمكنت فى هذه المرحلة وآتت أكلها. ولذلك نستطيع أن نذكرها مرة أخرى ونزيد عليها الأسباب الآتية :

ا — أن الاتصال بأوربا قد تعددت ألوانه ، وبخاصة بعد الاحتلال

الإنجليزى لمصر . فالبرق والبريد والرحلات ، والأساتذة الأجانب فى المدارس المصرية , والبعثات التبشيرية ، كل ذلك قد وثق الصلة بين البلاد العربية والغرب ، وأوقف الأدباء على الحياة الأدبية هناك فقلدوها .

(ب) أن قوة الاحتلال قد أثارت شعور المصريين وحركت الوعى القومى وأنبتت مناهضته رجالا كانوا رواداً للشعب فى كفاحه ، يشجعونه ويثيرونه ويهيجون مشاعره .

(ح) ظهور مدرسة السيد جمال الدين الأفغانى . وما أوجدته فى النفوس من تطلع نحو الحرية ، ويكفى أن من أبناء هـذه المدرسة ، أبطال الثورة العرابية وثورة ١٩١٩ كعبد الله النديم ، وسعد زغلول وغيرهما من رجال الأدب .

(ى) الحياة النيابية ونشأة الأحزاب : فقـد حدث بينها صراع ، كان القلم أحد أسلحته الفتاكة .

(هـ) إنشاء الجامعة المصرية وتخرج عدد كبير من كلياتها المختلفة .

(و) وقوف الكتاب على كثير من الاتجاهات الغربية والسير على نهجها .

(ز) إخراج كتب الأدب العربى القديم ، مثل الأغانى والأمالى والعقد الفريد .

وهنا نجد أن الأدباء — وقد تفرقت بهم مصادر الثقافة — انقسموا إلى طائفتين :

الأولى : تسير على سنة الأدب القديم من جزالة فى اللفظ وتلاحم فى النسج وقوة الصياغة اللفظية دون اتجاه إلى تجديد فى الفكرة أو ابتكار فى المعانى ، فهى هى كما كانت أيام القدماء .

الثانية : أخذت من الثقافة الغربية صور الحياة الجديدة ، وأبرزتها فى أخيلة جميلة ومعانى مبتكرة ، وإن أضعف من هـذا الجمال المعنوى أحياناً

ضعف فى الصياغة وتهافت فى التعبير . ومشكلة (القديم والجديد) فى الأدب تتجدد فى كل عصر . وقد ثارت هذه المشكلة بين الطائفتين ، كل طائفة تفخر بميزتها وتعيب الأخرى بما ينقصها . فأرباب الأدب القديم يعيبون على أتباع الغرب ضعف عبارتهم وأخطائهم اللغوية . وهؤلاء يقولون : إن المعنى أهم من اللفظ وأن روح الأدب فى معناه . على أن كل طائفة حاولت أن تصلح عيوبها . فأبناء القديم يجددون فى معانيهم ، وأبناء الثقافة الغربية يحاولون الارتقاء بلغتهم . حتى تكون — بمضى الزمن — نثر جديد جمع بين جزالة القديم وروعة التصوير فى الجديد . وحسبك أن تقرأ للمرصفى ولطه حسين والعقاد والزيات والبشرى وغيرهم من رجال الأدب اليوم .

أقسام النثر الأدبى :

١ — الرسالة الإخوانية .

٢ — القطعة الوصفية وتعتمد على التناسق فى العبارة ، واستخدام العاطفة والخيال .

٣ — القصة الروائية : وسنفرد لأسلوبها (النثر القصصى) بحثاً لما له من أهمية .

النثر القصصى

١ — المدنية الغربية

من كتاب (حديث عيسى بن هشام) للمويلحى

فى حديث جرى بين عيسى بن هشام وأحد الأصدقاء ، حين تساءل الباشا عن سبب تغير أحوال البلاد :

(عيسى بن هشام — إن الباشا يستخبرنى عن سرعة هذا الانتقال من حال إلى حال ، وما الأسباب والعلل ، فى انتشار هذا الفساد والخلل ،

فذكرت له بعض ماحضرنى منها ، وإنك لخليق أيها الصديق أن تكشف لنا عن وجه الحق الصريح ، وتخبرنا بما عندك من الخبر الصحيح .

الصديق — السبب فى ذلك هو دخول المدنية الغربية بغتة فى البلاد الشرقية ، وتقليد الشرقيين للغربيين فى جميع أحوال معايشهم ، كالعميان لايستنيرون ببحث ، ولا يأخذون بقياس ، ولا يتبصرون بحسن نظر ، ولا يلتفتون إلى ماهنالك من تنافر الطباع ، وتباين الأذواق ، واختلاف الأقاليم والعادات ، ولم ينتقوا منها الصحيح من الزائف ، والحسن من القبيح . بل أخذوها قضية مسلمة ، وظنوا أن فيها السعادة والهناء ، وتوهموا أن يكون لهم بها القوة والغلبة ، وتركوا لذلك جميع ما كان لديهم من الأصول القويمة والعادات السليمة ، والآداب الطاهرة .)

الكاتب :

محمد المويلحى تلميذ جمال الدين الأفغانى . تعلم فى المدارس ثم اشتغل بخدمة الحكومة واشترك فى الثورة العرابية . وقد سافر إلى الخارج فكان لذلك أثر كبير فى حياته . وله من كتب الأدب كتاب (حديث عيسى بن هشام) وهو على نسق المقامات العربية القديمة فى طريقة التخيل وقد نقد فيه المجتمع نقداً شمل كثيراً من نواحى الحياة . توفى سنه ١٩٣٠ .

تعليق :

١ — فى القطعة صورة من أسلوب الكاتب ، وهو أسلوب يغلب عليه السجع المتكلف ويميل إلى الإطناب والتفصيل . ولو قرأت الكتاب كله لوجدت المحسنات البديعية والزخارف اللفظية . مع انتشار روح الفكاهة فى كثير من مواقفه .

٢ — المويلحى هنا كاتب مقامات ، لم يصل إلى الحبكة القصصية الكاملة وذلك لكثرة استطراده فى وصف الأماكن والمشاهد .

٢ — من رواية (زينب)

للدكتور محمد حسين هيكل

« تقدم الخريف ، وظهرت على الأشياء وحشة . فكنت ترى مزارع القطن —ولم يبق على أشجارها ورقة— تمتد سوداء فوق أرض لانبات فيها ولا شجر . والذرة جاء عليه الهرم قد خلع كل أثوابه ، وبقى واقفاً منكمشاً ينتظر الموت القريب . والترع غاض ماؤها ولم يبق بقاعها الناشف إلا وشل[1] ينهل منه الناس والدواب . والشمس يؤذن مطلعها بمغيبها القريب ، وينتظرها الناس وكلهم الشوق لها بعد ليلهم الطويل البارد ، وكل شيء يؤذن بالأفول ، أو بسنته السنوية يأخذها أيام الشتاء حين لا سعى ولا عمل .

وكلما قطب الوجود ازدادت زينب حزناً وأسى ، وظهر عليها من أثر ذلك مايكاد يميزه كل من رآها من قبل . اعتقدت أن قد أصابها البرد حين أحست بسعال يناوشها من حين لحين ، ومع ذلك لم ترض أن تلزم الدار ، وتحتفظ بنفسها وتطلب الدفء لأنها كانت تعلم ما فى ذلك من حرمانها مشاهدة آثار إبراهيم وما خلف ، والشجرة الشهيدة على ما كان بينهما . وبالرغم من ريح الصباح القارسة التى تهز الأبدان وترعد الأسنان كانت تذهب إلى الترعة لأول خيط تبعثه الشمس من شعاعها على البسيطة متخذة لذلك حجة أيا تكون . وإذا ما جاء الظهر لم تنس أن تروح إلى (المحطة) ، لترسل هى الأخرى لأسود الوجه فاحم القلب ، الذى أبعد عنها محبوبتها نظرة حقد وكراهية . »

الكاتب :

أحد قادة النهضة الأدبية فى مصر . تعلم حتى حصل على الدكتوراه فى الاقتصاد والسياسة من الخارج ، واشتغل بالتدريس فى الجامعة ، ثم بالسياسة وتولى منصب وزير المعارف ، ولكن ذلك لم يمنعه من الاتجاه إلى

---

(١) وشل : ماء قليل :

الأدب فكتب فى الصحف ورأس تحرير مجلة السياسة الأسبوعية وألف فى القصة (زينب . هكذا خُلقت) وفى التاريخ . ومن كتبه الخالدة (حياة محمد . فى منزل الوحى) . وقصة زينب تصور حياة الريف ومشاهد طبيعته وأخلاق أهله وعاداتهم وما لهم من شعور عميق ورثوه عن آبائهم . وقد ظهرت عام ١٩١٤ فكانت فتحاً فى عالم القصة .

تعليـق :

١ — هكذا استقام أسلوب القصة بعد المويلحى ، وخلا من السجع والتكلف ، وانطلق عذباً رقيقاً يصور المشاعر النفسية ، ويربط بينها وبين مظاهر الطبيعة .

٢ — والأسلوب القصصى لا يستغنى عن الأسلوب الوصفى ولهذا يربط الكاتب بينهما فى صدق فنى يجمع بين مشاعر الإنسان ومظاهر الحياة فى الطبيعة . ولا ريب أن ذلك أثر من آثار الثقافة الغربية .

٣ — القصة حقيقية حدثت فى قرية (كفر غنام) وقد استطاع الكاتب أن يسجل الأحداث فى براعة وسهولة ، وأن يسجل عادات المصريين فى أوائل القرن العشرين ، مع الاحتفاظ بكل خصائص الفن القصصى ، ولهذا يمكننا أن نقول إنها أول قصة مصرية صميمة كاملة .

٣ — من قصة (عروس من قطن)

للأستاذ محمود تيمور

« كانت (ريحانة) وحيدة أبويها ، فهى الذخر الذى بقى لهذين الأبوين من ذرية ذهبت بها الأقدار ، فلا غرو أن تحاط منهما برعاية وإعزاز ، وأن يكفلا لها حياة دعة ورخاء . ما رأى ريحانة أحد إلا ظل ذاكراً لها . كانت ضامرة خفيفة الوزن تكاد الريح إن اشتدت أن تحملها على جناحيها كما تحمل أوراق الغصون ، وما أوفت على العاشرة حتى حجبها أبواها فى الدار فلم تعد تريم عتبتها ، وفى الخامسة عشرة من عمرها جرى فى شأنها حديث الزواج .

هكذا بلغت الفتاة تلك السن التى تستقبل فيها حياة الزوجية والأمومة

ولكنها على الرغم من ذلك لبثت طفلة بكل ماللطفولة من خصائص ، لهجتها فى الحديث . إشراقة وجهها بتلك السذاجة والبراءة . خفة حركتها كأنها الظبي الغريد .

لقد احتفظت فى هذه السن بطفولتها الحلوة ، حتى أنها لم تفرط فى عروسها القطنية التى خاطتها لها أمها فى يوم عيد ، فأصبحت هذه العروس أليفاً لها . تتصافيان وتتناجيان وتقنعان بدنياهما معتكفتين عن زحمة الناس .

ومن كان يرى ريحانة وعروس القطن لا يلبث أن يلمح بينهما من المشابه ما يثير العجب ، وكانت ريحانة نفسها تفطن لذلك ، فتفرح به وتزداد شغفاً بصديقتها الوفية وإعزازاً لها . تهدهدها وتتوسمها ، ثم تنثنى إلى قطعة من مرآة فتوازن بين قسمات العروس القطنية وقسماتها ، ثم تغرق فى ضحك ذى نبرات رائقة يسرى فيها المرح البرىء .

وكانت ريحانة تؤثر عروسها بأعز مكان فى الدار ، حتى أنها حين أحضروا لها (صندوق الجهاز) أحلت عروسها فيه قبل كل شىء وأنزلتها منه أكرم منزل .

الكاتب :

أستاذ القصة القصيرة فى العصر الحديث . ولد وشب فى أسرة عريقة تحب الأدب وتعشق الفن ، وقد أحب الأدب واتجه إليه وتأثر بكتاب من الشرق وكتاب من الغرب ، وطاف بكثير من بقاع الدنيا واختلط بالناس وجعل القصة ميدانه وامتاز فيها بالصدق الفنى والبساطة التعبيرية حتى أصبح أستاذاً لها فى اللغة العربية فى العصر الحديث . وإنتاجه الفنى متنوع الاتجاهات يهدف إلى المتعة الفنية قبل النقد الإصلاحى .

تعليق :

١ — فى أسلوب الكاتب (تسلسل واطراد) يحس معهما القارىء أنه متجه إلى غاية يرتاح عند الوصول إليها .

٢ — لو قرأت القصة كلها لوجدت لها موضوعاً يقوم عرضه على الوصف الدقيق المحلل .

٣ — فى القصة صور من المجتمع . فالأبوان يعزان ابنتهما الوحيدة . والأم تخيط لها عروساًمن قطن والفتاة تحتجب فى البيت حين تبلغ سن الزواج .

٤ — يصف جسم الفتاة وصفاً دقيقاً ، ثم يحلل نفسيتها فهو يجمع بين الوصفين الحسى والمعنوى .

٥— فى الأسلوب واقعية فى التعبير تجعلنا نحس أنه يصف شيئاً قد حدث فعلا ، وهو واضح فى تعبيره ، وهذه أبرز خصائص النثر القصصى تجتمع فى أسلوب الأستاذ تيمور .

٤ — من رواية (أهل الكهف)

للأستاذ توفيق الحكيم

[المنظر : بهو الأعمدة .. الأميرة بريسكا بين وصائفها وفى يدها كتاب]

الأميرة (متسائلة) : أين مؤدبى (غالياس) ؟ لم أره هذا النهار . [يبدو المؤدب غالياس مقبلا على عجل ، وهو شيخ طاعن فى السن أبيض الشعر ، وتنصرف عندئذ الوصائف ، وتبقى الأميرة ومؤدبها]

غالياس (وهو يلهث) : هأنذا أيتها الأميرة .

الأميرة : عجباً ! مالك تلهث والعرق يتصبب من جبينك ؟

غالياس : كنت بالمدينة يامولاتى ، ولو لم أذكرك الساعة لما جئت ركضاً .

الأميرة : ماذا بالمدينة ؟ أبى كذلك كان يطلبك الساعة فى اهتمام غريب .

غالياس (يتحرك بسرعة) : الملك يطلبنى ؟

الأميرة (مستوقفة) : انتظر . أترى ما بيدى ؟ كتاب الأحلام ، إنى رأيت الليلة حلماً عجيباً يا غالياس .

غالياس : خيراً يامولاتى ؟

الأميرة : رأيت كأنى دفنت حية .

غالياس (مفكراً لحظة) : يا إلهى ! أيكن أن يكون لهذا صلة بما شاع اليوم فى المدينة ؟!

الأميرة : ماذا شاع بالمدينة ؟

غالياس : إن كنزاً من عهد دقيانوس مدفون فى كهف بوادى الرقيم .

الأميرة (مستذكرة) : دقيانوس ؟ !

غالياس : نعم دقيانوس صاحب عصر الشهداء . ألم أحدثك بخبره فيما حدثتك من قديم التواريخ ؟ .

الأميرة : أليس هو أبا تلك الأميرة التى تسميتُ باسمها ؟

غالياس : هأنت ذى قد ذكرت يامولاتى . نعم هى ابنته تلك الأميرة القديسة التى تنبأ لك العراف ساعة ميلادك بأنك ستشبهينها خلقاً وإيماناً .

الأميرة : أو ترى هذا العراف قد صدق ؟ أو ترانى أشبهها حقيقة ؟ . إنك قلت لى مرة ياغالياس إنها سُمِعتْ تقول — كلما أرغموها على الزواج — إنها مرتبطة بعهد مقدس لن تحنث به .

غالياس : أصبت يامولاتى .

الأميرة : ترى مع من هذا العهد المقدس ؟

غالياس : مع الله يامولاتى . مع من غير الله تريدين ؟

الأميرة : كنت أحسبه مع من اختاره قلبها .

غالياس (مستنكراً) حاش لله يامولاتى . أستغفر الله ، أو يختار قلبها غير الله ؟ .

الأميرة : ومايمنع ؟ إن قلب المرأة يتسع دائماً لله وغيرالله . إنك لاتعرف قلب المرأة ياغالياس لأنك أحمق .

غالياس : مولاتى . إنى اطلعت على تاريخها كله .

الأميرة (فى تهكم) ولم تفهم منه شيئاً ، غير مايمكن أن يفهمه شيخ مثلك .

الكاتب : زعيم مدرسة الحوار فى القصة العربية . ومن كتاب القصة الممتازين فى هذا العصر . اشتهر بعداوته للمرأة ، وبحبه للمال . وقد ولد ونشأ وتعلم فى القاهرة وأتم دراسة الحقوق فى فرنسا ، ثم عين فى وظيفة وكيل النائب العام فى أحد (المراكز) الريفية . وهناك برز اتجاهه الأدبى حين ألف قصته (يوميات نائب فى الأرياف) ، وصور فيها البيئة الريفية تصويراً فنياً أخاذاً . ثم ألف روايته الخالدة (عودة الروح) فأثرت فى حياة كثيرين من أبناء الشعب الثائرين على نظم الحكم . ثم اتجه إلى الحوار فى (أهل الكهف — شهر زاد — الأيدى الناعمة) وقد اشتغل بالصحافة فترة من الزمن . ثم عين حديثاً مديراً لدار الكتب . وهو أول أديب معاصر يهتم الأوربيون بترجمة كتبه ، ورواياته تمثل على مسارح أوربا وبخاصة أهل (الكهف — بجامليون) وإنتاجه غزير وأسلوبه سهل وإتقانه للحوار واضح قوى .

تعليق :

١ — هذه صورة من النثر القصصى المسرحى يمتاز بالسهولة والوضوح وترتيب الأفكار . والبعد عن كل تعقيد فى الفكرة أو فى التعبير ، ليجارى مايحدث فى الحياة الواقعية بين الناس .

٢ — حاول الكاتب فى هذا الفصل أن يربط بين ماحدث فى الكهف من استيقاظهم ، وبين أهل المدينة ، فينتقل إلى هذا المنظر بين الأميرة التى تحلم بأنها دفنت حية وبين أستاذها الذى يتساءل عن علاقة هذا بخبر الكهف .

٣ — يصور غرور المرأة واهتمامها بشأنها ودعواها أنها أخبر بقلب الأنثى من الرجل ولو كان حكيماً .

٤ — تجد مناسبة العبارات والأفكار للشخصيات . فحديث بريسكا هو حديث (المرأة والأميرة) وحديث غالياس هو حديث المؤدب الحكيم . ثم لايهمل الكاتب ألوان العادات فغالياس يقول (مولاتى) ويتحرك بسرعة للملك . . . الخ .

٥ — انتقل الكاتب من الحديث عن حلم الأميرة ، إلى ماحدث فى الكهف ، إلى حكم دقيانوس ، إلى قلب المرأة — كل ذلك فى سهولة ويسر — وذلك دليل على تمكن الكاتب من فنه ، وعلى غزارة مادته وبراعة قلمه .

٦ — كان شوقى أول من ابتدع النثر المسرحى كما ابتدع الشعر المسرحى وقد تدخلت عوامل كثيرة فى النهوض بهذا الفن وأجلست توفيق الحكيم على عرش النثر غية .

خصائص النثر القصصى

مقدمة :

١ — لم يكن لهذا النثر خطر ما فى العصر السابق ، فقد تدهور وانحط حتى جاء المويلحى وظهر بكتابه «حديث عيسى بن هشام» الذى سار فيه على نهج المقامات ، عرض فيه الحوادث المصرية وانتقد الحياة الاجتماعية فى ذلك الحين . ولكننا لانستطيع أن نطلق على أسلوب هذا الكتاب « الأسلوب القصصى» لأنه يميل إلى الناحية «الوصفية» ولم يستكمل الخصائص الفنية للقصة .

٢ — وبرغم ما ترجم من القصص الغربى فى القرن التاسع عشر إلا أن الأدباء المصريين انصرفوا عن تأليف القصص حتى نشر جورجى زيدان رواياته ، فجاءت بداية طيبة لنشر أدب القصة فى مصر، برغم أنه وقع تحت تأثير الأسلوب الصحفى فى كتابتها ، وخلوها من التحليل أساس القصة إلا أنها مهدت لدخول هذا اللون من الأدب مصر ، ثم نشر الدكتور محمد حسين هيكل قصته « زينب » فاعتبرت أول قصة مصرية تمثل أسلوب النثر القصصى .

٣ — ثم يبدأ الطور الثالث لرقى القصة فقد مال إليها الأدباء ومالوا إلى القصص المترجمة يدرسونها ، وظهرت أنواع منها تحمل الطابع الأجنبى ، وليست من صميم الحياة المصرية .

٤ — فلما عاد توفيق الحكيم من أوربا وأظهر قصته « أهل الكهف » ثم « شهر زاد » بدأت القصة طوراً رابعاً وصلت فيه إلى درجة من الرقى لا بأس بها وإن كانت لا تجارى القصة الغربية فيه ، وزاد عدد القصاص : طه حسين — محمود تيمور — يوسف السباعى — عبد الرحمن الخميسى . وظهرت القصة المصرية الصميمة .

خصائص النثر القصصى :

١ — الميل إلى السهولة والتنويع ، فالمؤلف يختار لكل شخصية ما يناسبها من الأسلوب .

٢ — الميل إلى الوضوح ، فالأسلوب الغامض يحول بين القارىء وبين الاستمتاع بالقصة وتتبع حوادثها .

٣ — التنسيق المنطقى والسير فى حبل متصل متسلسل الحلقات تؤدى كل حلقة إلى ما بعدها ، حتى يشعر القارىء بالمتعة حين تنتهى القصة إلى حل العقدة التى نصبها الكاتب هدفاً لقصته .

٤ — أن تكون لغة القصة نابضة بالحركة والحياة .

٥ — البراعة فى التحليل والجودة فى رسم الشخصيات بحيث تعيش فى جوها الحقيقى من الحياة وتصدر فى أقوالها وأفعالها عن منطق هذه الحياة فهذا هو الجانب الأكبر من فنية القصة .

٦ — التلميح والبعد عن التصريح فالقصة المكشوفة لا يجد فيها القارىء لذة

٧ — اتباع طرق الإيجاز والإطناب كل فى موضعه .

٨ — البعد عن الألفاظ الشائعة التى فقدت رونقها وبهاءها .

٩ — العناية باختيار الألفاظ رشيقة ذات جرس موسيقى وعدم المبالغة فى التحاسين البيانية .

أسباب رقى النثر القصصى :

١ — الترجمة عن القصص الأجنبى .

٢ — إنشاء دار الأوبرا وانتشار فن التمثيل بمصر ، فقد احتاج إلى قصص وروايات .

٣ — وجد الكتاب فى القصة مصدر رزق لم يجدوه فى أنواع الأدب الأخرى .

٤ — إقبال المثقفين على قراءة القصة ، وتفضيلها على غيرها من فنون الأدب ، وقد دعا ذلك الصحف إلى تخصيص جزء من صفحاتها لنشر القصص ، وظهرت مجلات لاتحوى من الموضوعات إلا القصة ، قصص للجميع — القصة ، كما ظهر لها ناد يطلق عليه نادى القصة .

٥ — مجاراة الغرب فى العناية بالقصة ، فقد أصبحت القصة من أهم فنون الأدب عندهم ، وقد اتخذها كثير من الكتاب وسيلة لنشر أفكارهم ومعالجة موضوعات هامة من خلال حوادثها .

٦ — رصد المجمع اللغوى والهيئات الأدبية ، مكافآت سنوية جزيلة لأجود قصة مصرية للموضوع وخير قصاص .

النثر الاجتماعى

لون من النثر الفنى يتناول الموضوعات الاجتماعية العامة ويعالجها كالفقر والجهل والمرض وتعليم المرأة ، ومحاربة العادات الذميمة والبدع السيئة ومقاومتها ، ويمتاز أسلوبه بما يأتى :

١ — صحة العبارة ووضوحها وسلامتها .

٢ — البعد عن الزخرف وترك المبالغات .

٣ — لا تستعمل فيه الأقيسة الشعرية إلا عند الضرورة وبقدر وذلك فى المواقف التى تحتاج إلى تحميس للإقلاع عن خطة فاسدة أو عادة مرذولة .

٤ — يجرى على الأقيسة المنطقية ، لأنه فى الغالب يقوم على القضايا العلمية والحقائق الواقعية .

٥ — الحجة فيه قوية .

وقد عرف هذا اللون من النثر أيام جمال الدين الأفغانى ، ثم نشره تلميذه الشيخ محمد عبده وتخصص له قاسم أمين ، وأصبحت له الآن السيادة الكاملة فى عصرنا الحاضر .

النثر الصحفى

(١)

ورد فى أول عدد من (الوقائع المصرية) صدر بالعربية سنة ١٢٤٤ ﻫ ما يأتى :

« الحمد لله بارىء الأمم ، والصلاة والسلام على سيد العرب والعجم . أما بعد :

فإن تحرير الأمور الواقعة ، من اجتماع جنس بنى آدم المتدبجين فى صحيفة هذا العالم ، ومن ائتلافهم وحركاتهم وسكونهم ومعاملاتهم ومعاشراتهم التى حصلت من احتياج بعضهم بعضاً . هى نتيجة الانتباه والتبصر بالتدبير والإيقان وإظهار الغيرة العمومية . . . »

التعليق :

١ — لم يستطع الكاتب أن يعبر عن فكرته تعبيراً واضحاً لضعف استعداده الفطرى .

٢ — ومع ذلك حاول أن ينمق عباراته بألوان من المجاز مثل : (المتدبجين — صحيفة هذا العالم) . فبدأ تكلفه واضحاً ، لأنه حاول أن يربط بين المجاز وبين موضوع الحديث .

٣ ــ بدأ العبارة بحمد الله والصلاة والسلام على الرسول فى صورة تقليدية قديمة .

٤ ــ نستطيع أن نفهم الفرق بين الصحافة فى الفترة الأولى والصحافة اليوم حين نضع هذه العبارة إلى جانب افتتاحيات الصحف الكبرى اليوم .

(٢)

« لاتعصب فى مصر » للشيخ على يوسف :

« قالوا إن المصريين متعصبون تعصباً دينياً ، ومعنى هذا عندهم أنهم يكرهون المخالفين لهم فى الدين كراهة عمياء ، ويعتدون عليهم بروح البغضاء المتناهية ، كلما سنحت لهم فرصة ، أو استفزهم صائح . ولكن كيف وفى البلاد من قديم الزمان أديان مختلفة يتجاور أهلوها فى المنازل ، ويتشاركون فى المرافق ، ويتنافسون فى الأعمال ؟ فلم تكن بين المسلمين والأقباط تلك الروح الشريرة . ولو كانت فى فطرة المسلمين ، أو فطرة الفريقين للاشت الأكثرية الأقلية فى عصور مضت ، وخصوصاً فى عصور كانت الجهالة فيها سائدة . وكان بعض الحكام من المماليك وغيرهم يبذرون بذور البغضاء بين الفريقين ، لا لخدمة دينية إسلامية ، بل لأغراض منشؤها الشهوات والمطامع.

ولكن التواريخ تدل على أن الفريقين عاشا على الوئام والسلام فى كل الظروف أو أكثرها . وقد وفد على القطر المصرى وفود من كل الطوائف المسيحية . فلقى الكل فى مصر صدراً رحبا ، وكان منهم الموظفون فى كل مصلحة حتى تولى نوبار باشا الأرمنى رياسة النظار فى مصر . وكان قائمقام خديو ورئيساً للاحتفال بموكب المحمل الشريف .

فهل يوجد فى أمة غير الأمة المصرية المسلمة مثل هذا التساهل الذى يرأس فيه احتفالا دينياً رجل غير مسلم ؟

الكاتب :

زعيم الصحافة المصرية فى أول القرن العشرين ، ولد فى بلصفورة بمديرية

جرجا من أسرة فقيرة ، ثم تعلم عند أخواله فى بنى عدى بأسيوط . وأتم دراسته فى الأزهر واتجه إلى الأدب والصحف ، وانتهى أمره بأن أنشأ مع بعض زملائه مجلة (الآداب) ، ثم صحيفة (المؤيد) ، ثم استقل بها فكانت أعظم الصحف الإسلامية التى تدافع عن المسلمين وتحارب الاستعمار .

وقد وصل إلى مكانة مرموقة فى العالم الإسلامى . وظل قائماً على عمله الصحفى ، فى كفاية وقوة ، حتى توفى سنة ١٩١٣ م ، وكان رجلا ذكياً شجاعاً يتدفق فى كتابته ، ويؤمن بوطنه ودينه ، ويحارب فى ذلك صحف الاستعمار كالمقطم وغيرها .

تعليق :

١ — هذا أسلوب صحفى سياسى من ميزاته العبارة السهلة والمعنى الواضح الذى يناسب الجمهور المصرى فى وقت لم يصل فيه النضج الثقافى إلى درجة عالية عند الأكثرية .

٢ — لجأ الكاتب إلى الأدلة الواضحة المؤثرة ، ولم يعمد إلى التحليل المنطقى . فهو يذكر مايراه الناس جميعاً ويعرفون من مظاهر الوئام والسلام بين المسلمين وغير المسلمين ، وقد تولى نوبار رياسة النظارة .

٣ — الكاتب يعتمد هنا على الإقناع والتفهيم ، ويعالج نقطة حساسة فى حرص ودقة .

٤ — ليس فى الأسلوب سجع ولا تعمل أو تكلف . بل هو أسلوب ترسل سهل وقوى وصادق ، يؤيد ماعرف عن الكاتب من تدفق وذكاء ومقدرة لايعنى معها بمراجعة ما يكتب قبل إرساله إلى المطبعة .

(٣)

نشرت الصحف المصرية بياناً أرسله بعض المصريين إلى الصحف الأوربية وعصبة الأمم احتجاجاً على فظائع الإنجليز فى مصر عقب مقتل السردار فى عام ١٩٢٤ م .

« تسود فى مصر هذه الأيام قوة غشومة مسلحة تعتمد عليها حكومة متمدينة فى القرن العشرين لإذلال أمة ناهضة متمدينة ، كل ذنبها أنها تنشد حريتها الطبيعية المقدسة ، وتطالب بحقوقها الطبيعية المغتصبة — لعله ليس فى العالم كله أمة أسفت وتألمت لقتل السردار أكثر من الأمة المصرية ، ولقد أظهرت جميع طبقاتها بشكل واضح جلى ، أسفها واستنكارها لهذا الحادث الفظيع وهى مع ذلك قد دفعت تعويضاً باهظاً ، وقبلت أن تعتذر . رغم قيامها بواجبها من تعقب المجرمين بكل همة ونشاط . ورغم أن هذه الجريمة الشنعاء يقع أمثالها فى كل بلد مهما ارتقت شئونه ، وانتظمت إدارته . بل وقعت بالفعل فى شوارع (لندن) نفسها جناية لا تقل عن هذه الجناية خطورة : وهى قتل (الفيلد مارشال ويلسون) رغم ماأنذرت به الحكومة الإنجليزية من أن حياته مهددة — فلم يقل أحد بأن النظام الذى حكمت به إنجلترا قد عرضها لاحتقار الأمم . ولم يقل أحد بأن إنجلترا عاجزة عن حكم نفسها . ومع ذلك فحكومة بريطانيا (العظمى) الحالية بالرغم من كل هذه الاعتبارات لا تريد إلا أن تستغل هذا الحادث لإذلال ، مصر ، وتنفيذ مطامعها الاستعمارية ، على مرأى ومسمع من الدول المتمدينة » .

تعليق :

١ — الأسلوب أسلوب ترسل لا سجع فيه ولا زخرف ، ولا تعمد لشىء من المحسنات البديعية ذلك لأن الموضوع لا يناسبه شىء من ذلك .

٢ — فى العبارة سهولة ووضوح كما هو المطلوب فى الأسلوب الصحفى وإن كانت هناك هنات لغوية ، فالصواب أن يقال (على الرغم أو بالرغم) وقد كرر الكاتب قوله (رغم) أكثر من مرة .

٣ — فى العبارة صورة من الحالة النفسية التى كنا نعيش فيها تحت حكم الإنجليز . فبريطانيا (عظمى) وقتلة السردار (مجرمين) ، والجريمة (شنعاء) والله يعلم أن قلوب المصريين تحتقر (عظمة) بريطانيا وتبارك

هذه (الجريمة) إن كان قتل المعتدى على الأوطان جريمـــة فى نظر المجتمع الاستعمارى .

(٤)

(الحرية الشخصية للفتاة) من مقال للسيدة أمينة السعيد نشر فى مجلة الهلال سنة ١٩٥٦ .

« إن آراء الغرب تتفق على مساواة الذكر بالأنثى فى الحريات الاجتماعية . والنتيجة أن أصبحت الفتاة عندهم تعيش مثـل ما يعيش الفتى تماماً ولا تخضع دونه لقيود أو التزامات . والحال على ما رأيته بعينى هناك ، فوضى خلقية لا حـد لها . أو هو على حد تقديرهم وضع اجتماعى طبيعى يرضى عقولهم ، ويتمشى مع عقلياتهم ومبادئهم ، ولـكنه قبيح كل القبح فى عرفنا الشرقى المحافظ .

وأنا أومن بالحرية من كل قلبى . ولـكنى أومن إلى جانب ذلك بوجوب احتفاظ كل شعب بخصائصه المميزة له عند سائر شعوب العـالم ، مادامت هـذه الخصائص لا تتعارض مع سـنة الارتقاء الاقتصادى والاجتماعى والثقافى . فإهدار الخصائص الطيبة محو للشخصية التى تـكسب الأمة صـفة مستقلة تحول دون تلاشيها فى بقية الأمم .

والمحافظة الخلقية التى هى طابع الشرق صورة رائعة لتقدير العفة وتوقير الشرف . والأمم التى تستطيع التمسك بهـذا الطابع مع مسايرتها لجوهر الحضارة ومعانيها الأصيلة تضرب فى مثالية الارتقاء سهما معلى . ففضيلة الحريات تصبح إثماً إذا خرجت عن النطاق الخلقى الواجب مراعاته فى تربية الأفراد » .

الـكاتبة :

كاتبة صحفية . تخرجت فى الجامعة المصرية ، ودعت إلى مشاركة المرأة للرجل فى كل عمل لا يتعارض مع أنوثتها ، على ألا يتعارض ذلك مع قيامها

بواجبها الأصلي كأم وزوجة . وأسلوبها الذى تكتب به فى كثير من الصحف هو الأسلوب الصحفى السهل المتحرر من كل قيود التكلف والزخرف . وقد سافرت كثيراً إلى الخارج ، وكانت مثالا كريماً للمصرية المثقفة فى كل البلاد التى زارتها .

تعليق :

١ — الأسلوب سهل واضح حر من كل عيوب النثر القديم . فالمعنى حى قوى ، والفكرة واضحة فى ذهن الكاتبه ، والألفاظ لاغموض فيها .

٢ — تناولت الكاتبة أمراً يهم البلاد ولرأيها اعتباره ، لأنها سيدة تتحدث عن حرية الفتاة .

٣ — لا شك أنها خضعت لعاطفتها الشخصية حين مدحت بلادها وعابت عادات الغربيين .

٤ — تلوح بين سطور المقال (لو قرأته كله) مظاهر الجدل أو النقاش . لكنه نقاش هادىء مطمئن .

تاريخ الصحافة العربية

قبل أن نتحدث عن خصائص النثر الصحفى يحسن أن نقدم صورة موجزة لتاريخ الصحافة فى البلاد العربيـة ، على أن نشير إلى خصائص أسلوبها فى كل فترة من فترات تاريخها . ولسهولة فهم الموضوع نقسم هذا التاريخ إلى أربعة أطوار :

١ — الطور الأول ـ من الحملة الفرنسية إلى عصر إسماعيل ـ لم تعرف البلاد العربية الصحافة قبل الحملة الفرنسية . فقد أنشأ الفرنسيون بمصر صحيفتين فرنسيتين وصحيفة عربية اسمها (التنبيه) لا تخرج عن أنها نشرة رسمية دورية تصدر فيها التعليمات . وأشرف على تحريرها السيد إسماعيل الخشاب ، وفى عهد محمد على صدرت (الوقائع المصرية) بالتركية والعربية ، ثم

بالعربية وحدها . وكانت تنشر الأخبار الرسمية أولا ، ثم أفردت بعض صفحاتها للبحوث العلمية والأدبية ، ثم عادت رسمية إلى اليوم . وأشرف على تحريرها فى ذلك الوقت الشيخ حسن العطار والشيخ أحمد فارس الشدياق والشيخ محمد عبده ـ ولم يصدر غيرها فى مصر طوال هذه الفترة .

أما فى البلاد العربية . فقد صدرت جريدة (المبشر) فى الجزائر ، وقد أصدرها الفرنسيون رسمية . وفى سوريا صدرت بعض المجلات الدينية التبشيرية . ثم صدرت الصحف السياسية لاضطراب الأحوال هناك ، فصدرت (مرآة الأحوال — الفجر المنير — الجوائب — الفرات — الزوراء) . وأسلوب الصحافة فى هذه الفترة كان ركيكاً ضعيفاً مليئاً بالأخطاء النحوية واللغوية والكلمات العامية ، مع العناية بالزخرف وتكلف المحسنات .

٢ — الطور الثانى : عصر اسماعيل — نشطت الصحافة فى مصر نشاطاً كبيراً لسببين كبيرين « أولهما » إن إسماعيل شجع الأدباء والصحفيين ليساعدوه ضد الباب العالى وبشرط ألا يغمزوه . « وثانيهما » هجرة كثير من السوريين إلى مصر فراراً من اضطهاد الأتراك ، أو رغبة فى الكسب المادى فى مصر ، وكان اتجاههم إلى الصحافة . وقد صدرت فى مصر (اليعسوب فى الطب — روضة المدارس التى أشرف على تحريرها « رفاعه الطهطاوى » ناظر قلم الترجمة — الكوكب الشرقى — الأهرام — المحروسة) .

وقد تحرر أسلوب الصحف فى هذا الطور من الضعف القديم والزخرف اللفظى . ومال إلى الترسل والإسهاب والرشاقة والطلاوة ، وذلك بفضل رفاعه الطهطاوى ، وما كان ينشره من فصول يختارها من مقدمة ابن خلدون . وبفضل ازدياد حركة التعليم وظهور أمثال جمال الدين الأفغانى وأديب إسحق .

٣ — الطور الثالث : — عصر الاحتلال — ساعد إسماعيل على كثرة الصحف مادامت لا تتعرض له بالنقد ، فلما جاء توفيق كانت الآراء قد تقدمت ، والأفكار الحرة قد ملأت الرءوس . ووجد المصريون فى توفيق

ضعفاً فاندفعوا فى حريتهم ونشرت الصحف مالم تكن تجرؤ على نشره فى أيام إسماعيل . وظهرت صحف عنيفة فى هجائها مثل (التبكيت والتنكيت) لعبد الله نديم . فأصدرت الحكومة قانوناً يحد من حرية الصحافة فى سنة ١٨٨١ فلم يجد نفعاً أمام تيار الحرية الجارف . وقامت الثورة العرابية ، وتدخل الإنجليز واحتلوا البلاد فدخلت قوة جديدة إلى الميدان هى قوة الاحتلال . ووجد فى مصر هذه الأنواع من الصحف :

(ا) صحف تؤيد الاحتلال وتشجعه مثل (الزمان — المقطم) .

(ب) صحف تحارب الإنجليز لا بدافع وطنى ، وإنما بتحريض من دولة أجنبية كالأهرام التى كانت تخدم فرنسا .

(حـ) صحف وطنية أنشأها المسلمون للدفاع عن مصالح البلاد . وأولها (المؤيد) للشيخ على يوسف . وهى أول صحيفة وطنية كبرى مهدت السبيل لغيرها من الصحف الوطنية . وقامت بينها وبين (المقطم) صنيعة الاستعمار حرب شعواء أصبحت فيها المؤيد مدرسة كبرى للوطنية . من رجالها (محمد عبده — سعد زغلول — قاسم أمين) ، ثم ساندتها اللواء جريدة مصطفى كامل ، فكانت قوة وطنية كبرى ومدرسة تخرج فيها رجال الحزب الوطنى .

وفى هذه الفترة تخلص الأسلوب الصحفى من الضعف والإسفاف والزخارف اللفظية وأصبح مرسلا حراً قوياً — وغلبت عليه النزعة الخطابية لما فيها من إثارة لحماس الشعب . وشاع فيه الجد والصراحة والسخرية الممتزجة غالباً بالألم لحال مصر المحتلة . وظهر الازدواج والتقطيع الصوتى .

أما الموضوعات : فقد تنوعت واتسعت دائرة العمل الصحفى فشملت كل عواصم المديريات .

٤ — الطور الرابع — من ثورة ١٩١٩ إلى اليوم — فى هذه الفترة كثرت الصحف وكثر الإقبال عليها ، وتنبه الشعب إلى خطرها ، ووفدت إلى مصر شركات أنباء عالمية ومطابع جديدة سريعة ، مما ساعد على طباعة راقية

وتبويب جميل وانتشار سريع فى الريف وفى كل البلاد العربية ، وأصبحت الصحافة سلطة خطيرة — وكان أسلوبها يعنف ويقوى فى الأزمات والأحداث الخطيرة — ويهدأ ويتزن ويحلل فى أيام الهدوء (وما أقلها) — لقد تقدمت الصحف حتى أصبحت تضارع أعظم صحف العالم وتنوعت بين صباحية ومسائية وأسبوعية ، وتخصص بعضها فى الأدب وبعضها فى العلوم وهكذا ... ثم دخلت المرأة ميدان الصحافة وبرزت فيه بروزاً واضحاً يشير إلى مستقبل عظيم .

خصائص النثر الصحفى :

١ — الاتجاه إلى الفكرة الواضحة المحددة على أن تكون هذه الفكرة ذات أثر واضح فى حياة المجتمع السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية .

٢ — الإيجاز مع السهولة والوضوح لأن الصحف تخاطب عقولا متباينة ، والناس يطلبونها لساعتها ، فلا محل للارتفاع بعبارتها أو التعمق فى معانيهـــا .

٣ — ليس هناك مجال لتنميق الأسلوب أو المبالغة فى الخيال أو الاتجاه إلى المقدمات .

٤ — الاتجاه إلى الأدلة الخطابية . لأن المقال الصحفى يكاد يكون خطبة مكتوبة .

٥ — الاعتماد على الجدل والنقاش فى معالجة المشكلات الهامة .

٦ — إلا أن أسلوب المجلات يجب أن يكون أعمق وأدق من أسلوب الصحف ، ويجب العناية فيه باختيار العبارة الرشيقة الأنيقة لأن وقت قارىء المجلة أوسع من وقت قارىء الصحيفة .

٨ — أسلوب المقالات الخاصة بالفنون والعلوم فى الصحف السياسية يجب أن يكون وسطاً بين أسلوب السياسة الصحفية وأسلوب المجلات الأدبية .

أثر الصحافة فى النثر الحديث :

الصحافة قوة موجهة ذات أثر بعيد فى المجتمع . وقد أثرت فى النثر تأثيراً كبيراً ، وأنت إذا قرأت نموذج الوقائع المصرية ثم تتبعت النماذج التى قدمناها لك عرفت مقدار هذا التأثير ونتيجته .

١ — وأبرز أثر أنها أطلقت لغة النثر من قيود السجع والزخرف اللفظى ، فانطلق حراً خالياً من شوائب الضعف .

٢ — ذللت طريق الكتابة باستعمال العبارات السهلة الواضحة والبعد عن التكلف .

٣ — نشرت كثيراً من صور الأدب الأفرنجى ففتحت أمام الكتاب مجال الفكرة الحية ، والمعنى الجديد .

٤ — نشرت كثيراً من صور الأدب العربى القديم فعرضت على الأذهان آيات من البلاغة العربية تصقل الألفاظ وتجمل العبارة .

٥ — أوجدت مجالا للتنافس الأدبى والسياسى بين الأدباء والساسة ، ووجهتهم إلى الحرص على إصابة المعنى وتحقيق الهدف ، لأن أدبهم يعرض على الناس جميعاً وفيهم الناقد الدارس والأديب المدرك .

٦ — أمدت الكتاب الناشئين بصور الأدب الحى ، وكانت مدرسة يتعلمون فيها تعليماً مبنياً على الخبرة الشخصية والتجربة الذاتية .

٧ — الصحف تكتب فى موضوعات تهم الناس ، ولذلك تجد عليها إقبالا . وجمهور الصحف يزداد كل يوم عن سابقه . وقد رأينا الصحف تبدأ فى القاهرة والإسكندرية ، ثم تمتد إلى عواصم الأقاليم ، ثم تنتشر اليوم فى أقاصى الريف وتجذب كل يوم انتباه عدد جديد من ذوى الثقافة المحدودة فتمدهم بذخيرة قوية فى السياسة والأدب . وتعطى صاحب الاستعداد فيهم الفرصة ليتجه إلى الإنتاج الادبى .

٨ — أشاعت فى الأسلوب روحاً جديدة من التحرر اللغوى والفكرى وقوة البيان وطرافة الموضوع .

النثر الخطابى

(١)

من خطبة ألقاها السيد عبد الله نديم يوم سفر عبد العال حلمى بألايه إلى دمياط :

« حماة البلاد : هذا أخوكم الحر يدعوكم ويسير بإخوانكم إلى دمياط ، فاجعلوا عروة الود وثيقة ، ولا تحلوا حبل الاتحاد الذى جاهدتم الأنفس فى إحكامه ، فقد زالت موانعنا التى كانت تجر إلى الفساد ، والأنس دار رحيقه بين الجيوش أولى الرشاد ، ولا تعمر الدنيا إذا لم تترك الخلق العناد ، فالأرض تنبت زرعها لحياتنا بالاتحاد .

وجاء فى الختام قوله : وأحسن ما يؤرخ به اسم الجهادى عند النوازل أن يقال مات شهيد الأوطان . فنادى الجميع : رضينا بالموت فى حفظ الأوطان »

الخطيب :

كاتب متصرف ، وخطيب مفوه ، وشاعر مبدع . اشتغل بالصحافة فأنشأ جريدة « التبكيت والتنكيت » التى كانت تستعمل أسلوباً ظاهره الهزل وباطنه الجد المؤلم . ثم اشترك فى الثورة العرابية ، وأنشأ « الطائف » لتكون لسان حال الثائرين . ونفى إلى سورية ثم عاد إلى مصر ، ولكنه نفى ثانياً لغمزه الحكام فى أساليبه ، وهناك اتصل بالسيد جمال الدين ، ومات فى سنة ١٨٩٦ م .

التعليق :

عرف النديم بتبريزه فى الخطابة ، ولكن أسلوبه فيها أسلوب إثارة وإهاجة ، وأسلوبه هنا لا يميل إلى السجع إلا إذا جاء عفو الخاطر ، ولو قرأت الخطبة كلها لوجدت فيها شعوراً دافقاً يتمثل فى قوة عاطفة الخطيب ، وهو فيها يستخدم الأدلة المنطقية « إن الأمة جسد ، والجند روحه ، ولا حياة للجسم بلا روح » . ويكرر الدعوة إلى الاتحاد ، فى أسلوب إنشائى طلبى . وهو يستخدم أيضاً الأدلة الخطابية ، فيستشهد على ما يقول بالأحاديث ويضمن خطبه بعض أبيات من الشعر ، ويقتبس من القرآن ما يقوى حججه .

والأسلوب سهل واضح ، ليفهمه السامع ، ولأن الخطيب لا يملك من الوقت ما يساعده على التنميق والتحسين .

(٢)

خطب مصطفى كامل فقال :

(أيها السادة : إنكم باجتماعكم اليوم هذا الاجتماع الوطنى ترفعون كثيراً من مقام الوطنية المصرية ، وتخففون من آلام مصر العزيزة التى قاست وتقاسى أشد العذاب على مشهد منكم يا أعز بنيها ويا نخبة أنجابها . فكل اجتماع وطنى تذكر فيه مصر ، ويطالب بحقوقها ، ويعلن أبناؤها إخلاصهم لها — هو فى الحقيقة مرهم لجراحها ودواء لدائها . اذكروها كما يذكر الولد الحنون أمه الشفيقة وهى على سرير المرض والعناء . اذكروها بآلامها وإن كان غيركم يذكر بلاده بمجدها ورفعة شأنها . اذكروها فإنكم ما دمتم مقدرين لمصائبها عارفين بحقيقة آلامها ، دام الأمل وطيداً (ثابتاً) فى سلامتها ودام الرجاء . اذكروها فمن المستحيل أن يرى العاقل النار فى داره . والداء فى شخص أمه ، ويهمل النار ويهمل الداء .)

الخطيب :

ولد بالقاهرة ونشأ وتعلم بها ، وظهر تفوقه فى أثناء المرحلة الثانوية ، وفى مدرسة الحقوق أخذ نفسه بالتمرين فى الخطابة ، وجعل يكتب فى الصحف وبخاصة جريدة (المؤيد) . ثم تخرج فاشتغل بالسياسة وانصرف إلى مقاومة الاحتلال الإنجليزى بخطبه ومقالاته وكتبه ورحلاته إلى أوربا ، وقد أنشأ جريدة اللواء وصحيفة بالفرنسية وأخرى بالإنجليزية . وكون الحزب الوطنى وتولى زعامته ، لكن المنية عاجلته فمات عام ١٩٠٨ م .

كان خطيباً متمكناً وصحفياً بارعاً ، كان فى صوته جهارة وحلاوة ، وكان حاضر الذهن ، قوى الحجة ، رائع المطلع ، متدفق البيان .

التعليق :

١ — استعمل الخطيب الأسلوب السهل الواضح ليستطيع السامع أن

يفهم عنه وفى السامعين (على أيامه) أمية تحتاج إلى الوضوح . ومن علامات الوضوح : هذه الجمل القصيرة والألفاظ المألوفة . وهذا الترتيب للفكرة ولعناصر الخطبة ، وهذا التركيز على فكرة واحدة ، هى فكرة الوطن والتضحية فى سبيله .

٢ — يهتم الخطيب هنا بالتكرار اللفظى (اذكروها — اذكروها) ، والتكرار المعنوى فى هذه الجمل المتعددة التى تدور حول معنى واحد : هو حب مصر والتضحية فى سبيلها .

٣ — اهتم بعواطف الجمهور وتحب إليه (يا أعز بنيها ويا نخبة أنجابها) وهذه من علامات النجاح فى الخطابة .

٤ — يعتمد فى الاستدلال على الأدلة الخطابية لا على الأقيسة المنطقية فهو يضرب الأمثلة بما يمس المشاعر ويصور الوطن فى صورة الأم والوطنى فى صورة الإبن البار .

٥ — مصطفى كامل خطيب (إيقاظ وتحميس) وقد عرفت أن النديم كان خطيب (إثارة وإهاجة) وكلاهما كان كاتباً إلا أن النديم غلبت عليه الصنعة مع قدرة على الترسل ، أما مصطفى كامل فكان كاتب ترسل فحسب .

(٣)

خطب سعد زغلول فى وفود المهنئين بعودته عقب قطع المفاوضات سنة ١٩٢٤ ، فقال :

« الحمد لله الذى جعلكم خياراً أبراراً . تقدرون سعى الساعين ، وإن لم يكن منتجاً النتيجة التى تطلبونها . نعم . إن النتيجة التى كنا ننشدها من تلك المساعى لم تحقق ، ولكن أمراً جليلا تحقق . ذلك أن خصومنا علموا أن الأمة المصرية مصرة على طلب الاستقلال التام ، لا ترضى منه بديلا ، ورأوا فوق ذلك أن الذى ائتمنتموه على حقكم ، والذى وضعتم فيه ثقتكم رفض أن يقبل بالنيابة عنكم ما عرض عليه ، وكان قد طلبه الآخرون ورفض لهم »

الخطيب :

سعد زغلول زعيم من زعماء مصر الخالدين . تعلم فى الأزهر واتصل بجمال الدين واشترك فى الثورة العرابية ، وبعدها اشتغل بالمحاماة ، وتعلم الفرنسية ، وتولى منصب وزير المعارف فأحدث انقلاباً عظيما حين جعل التعليم باللغة العربية ، وبعد الحرب العالمية الأولى اشترك فى الأحداث السياسية وأعطته الأمة قيادها فجاهد وناضل فى سبيل بلاده إلى أن تحققت الحياة النيابية وتولى رياسة الوزارة ورياسة مجلس النواب . توفى سنة ١٩٢٧ م .

التعليق .

١ — أسلوب سعد سهل واضح فيه قوة وتحبب إلى السامعين ، وتيسير للفكرة والعبارة حتى يدركهما سامع أمى يغلب وجوده فى مصر .

٢ — كان بارعاً حين ذكر إيمان الإنجليز بتصميم المصريين على نيل الاستقلال عقب الحديث عن عدم نجاح المفاوضات .

٤ — لم ينس فى خطبته أنه رجل حزبى ، وله خصوم ، فهو يحاول أن يطعنهم حين يذكر أنه رفض ما عرض عليه وطلبوه هم فرفض طلبهم من المحتلين ، وإن كان هذا الطعن لا يرضى كثيراً من الناس .

الخطابة فى العصر الحديث:

١ — الخطابة فن التحدث إلى الناس فى شأن من شئون حياتهم العامة ، وهى فن قديم يعتمد على الإقناع والاستمالة . وقد تغيرت الخطابة على مر الزمن وتنوعت بتنوع الأغراض ، فأصبحت دينيــة وسياسية واجتماعية وقضــائية .

٢ — تقوى الخطـابة حين يشعر الناس بشىء من الحرية ، ويسعون لتغيير أحوالهم السيئة ، وحين تكثر الأحداث التى تدفع القادة إلى توجيه الأمة نحو غرض معين .

تاريخها فى العصر الحديث :

١ — لم يعرف عصر محمد على النثر الخطابى إلا فى الخطب الدينية التى جمعت فى كتب يقرأ منها الخطيب الخطبة التى تناسب الأسبوع وما به من مواسم دينية . وقد كان هذا نتيجة طبيعية للجمود الذى أصاب الحياة العربية كلها بعد الحروب الصليبية ، وإلى إهمال محمد على للنهضة الأدبية ، وإلى عدم شعور الناس بحريتهم فى هذه الفترة .

٢ — ثم جاء عصر إسماعيل ، فشعر الناس بشىء يسـير من الحرية ، وظهر جمال الدين الأفغانى ، ووجدت صورة من الحياة النيابية . وكانت هذه العوامل سبباً فى وجود خطابة فى موضوعات عامة تجاوزت الأمور الدينية إلى الأحداث السياسية والاجتماعية .

٣ — وفى عصر توفيق ، نشبت الثورة العرابية ، وكانت الخطابة من أهم أسبابها وذلك :

(ا) لأن تعاليم جمال الدين الأفغانى قد أثمرت ، وتخرج فى مدرسته طائفة من الخطباء المؤمنين ببلادهم ومنهم عبدالله النديم خطيب الثورة العرابية وفارسها فى هذا الميدان .

(ب) ولأن المصريين شعروا بسوء حال بلادهم حين أصابها الاحتلال وتحدد أمامهم هدف سعوا إلى تحقيقه .

ثم اشتد طغيان المستعمرين ، وقضوا على ما أحس به الشعب من حرية فضعف شأن الخطابة ، إلى أن ظهر مصطفى كامل فأخذ يخطب فى الجماهير ، ويندد بمساوىء الاستعمار فى مصر وأوربا ، ويوقظ الهمم ويبعث الأمل فى النفوس ، وكانت دار الحزب الوطنى مدرسة لتخريج طبقة من زملائه ، فاشتد ضغط المستعمرين عليهم وقضى على الخطابة بعد وفاة مصطفى كامل .

٤ — وظلت نار الوطنية تلتهب تحت الرماد ، واقتصرت الخطابة مرة أخرى على الخطابة الدينية وظهر قليل من الخطباء السياسيين فى أروقة الجمعية التشريعية ، ثم كانت الأحداث الكبرى التى شبت على أثرها ثورة ١٩١٩

فعادت الخطابة إلى قوتها الدافقة ، وظهر سعد زغلول وإلى جانبه كثير من الخطباء الذين أصبحوا أئمة فى هذا الفن ومنهم مكرم عبيد وتوفيق دياب ، وما زال الاستعمار فى حرب مع الوطنيين ، والنضال يشتد يوماً بعد يوم ويحتاج إلى قادة من الخطباء حتى جاءت ثورة الجيش فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ فأخرجت لمصر جيلا من الخطباء العسكريين برزوا فى هذا الميدان فصاروا أئمة عن جدارة واستحقاق .

ولعلك تلاحظ أن كل ما ذكرناه يقتصر على الناحية السياسية .

أما الخطابة الدينية فقد ظلت كما كانت إلى أن تخرج فى الأزهر بعد تنظيمه طائفة من الخطباء درسوا العلوم الحديثة ، وعرفوا خصائص الفن الخطابى ، واتجهوا إلى موضوعات تمس حياة الناس ثم إلى موضوعات هى من صميم حياة الناس ، واتجهوا إلى الأسلوب القوى الواضح . وأصبحت لهم القدرة على الارتجال ، والتمسك بوحدة الفكرة . وبهذا أصبحت الخطابة الدينية ذات أثر قوى فى حياة الأمة .

وأما الخطابة القضائية فلم تعرف فى مصر إلا بعد أن عرفت نظم القضاء الحديثة ووجد ممثل للاتهام ومدافع عن المتهم ، وهى خطابة تقوم على المنطق والحجج القانونية أى تهتم بركن الإقناع ، وإن كانت لا تهمل جانب الاستمالة وهى اليوم فى درجة عالية من القـــوة . وفى محاكم القطر تسمع كل يوم عشرات من الخطباء القضائيين .

أما الخطب الاجتماعية التى تتناول مشاكل المجتمع ، كالفقر والجهل وحوادث الأسرة ، فلم تزدهر إلا بعد أن اهتمت الدول العربية بشئون المجتمع ووجدت وزارات خاصة بهذه الشئون .

وهناك خطب تقال فى تكريم العظماء أو تأبينهم وتسمى خطب المحافل وقد ازدهرت فى بعض الأوقات من هذا القرن العشرين . لكن الفترة الأخيرة من حياتنا ، بما فيها من صحف وإذاعة ومجلات تكاد تطغى على خطب المحافل والاجتماع .

خصائص النثر الخطابي :

١ — لابد فى النثر الخطابى من السهولة والوضوح ، لأن السامع إذا لم يفهم ضاع على الخطيب ما يرجوه ، ولأن الخطابة توجه إلى جمهور تغلب عليه فى بلادنا الأمية . ومثل هذا الجمهور يحتاج إلى الوضوح .

٢ — لكى نحقق الوضوح لابد من استعمال الجمل القصيرة والألفاظ المألوفة ، وترتيب الأفكار ، وتقدير الزمن المناسب لعناصر الخطبة ، ووحدة الموضوع .

٣ — يحتاج الأسلوب الخطابى إلى التكرار اللفظى والمعنوى كما رأيت فى النماذج التى قدمناها لك .

٤ — لابد من أن يدرس الخطيب نفسية الجمهور ويتجاوب معه ، ويحاول أن يسيطر على مشاعر الناس ويجذب انتباههم إليه ، ويجدد نشاطهم بألوان من الفكاهة وغيرها .

٥ — لا بد فى الخطيب من جهارة الصوت وحسن الإلقاء وجمال النبر وتنسيقه وتنويعه بين الارتفاع والانخفاض والتدفق والتأنى بما يناسب الظروف .

٦ — يحسن فى النثر الخطابى الاعتماد على التقطيع والازدواج ، لأنه يقوى الفكرة ويحقق رنيناً خاصاً .

٧ — تحتاج الخطب السياسية والاجتماعية إلى الأدلة الخطابية التى تستند إلى العرف الشائع أو الحكم المأثورة ، أو القصص التى تؤيد فكرة الخطيب ، أو المقدمات التى يفترضها الخطيب .

أما الخطب القضائية فلا بد فيها قبل ذلك من الأدلة القانونية . والحجج المنطقية العقلية .

أسباب نهضة النثر

قدمنا لك الأسباب التى أدت إلى نهضة كل نوع من أنواع النثر أو تأخره فى كل فترة من فترات الحياة السياسية فى العصر الحديث. والآن نقدم لك الأسباب التى أدت إلى نهضة النثر بكل فنونه فى العصر الحديث :

١ — الحرية : فالعرب من أكثر الأمم حباً للحرية وسعياً وراءها ، فلما أصابهم الضعف وطال بهم الذل وفقدوا حريتهم عاشوا فى صورة غير كريمة من التواكل والخضوع . فلما عاد أعضاء البعثات من الخارج ، تحركت الطبيعة العربية ، وظهر الميل الغريزى إلى الحرية فى بلاد الشرق — وهنا بدأ تحرر العقول واتجهت الهمم إلى التخلص من الاستعمار والعادات البالية والتقاليد القديمة . وحمل لواء الإصلاح السيد جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده وعبد الله نديم وغيرهم من مدرسة الإصلاح ، وكلهم أصحاب قدرة أدبية أظهرت مقدرة رائعة فى الميدان .

٢ — الصحافة : فقد ظهرت صحيفة الوقائع وتبعتها الصحف فى فنون متعددة ، وشارك فى النهضة الصحفية كثير من الرجال ، وبخاصة السوريين . وقد سبق أن حدثناك عن الصحافة وأثرها فى النثر .

٣ — البعثات العلمية : فإن رجالها عادوا من الخارج وخلقوا فى البلاد نهضة علمية كانت هى الأساس فى تحرك الأفكار وحياتها واتجاهها نحو الكمال ، وحسبك هذه الكتب التى ترجموها ثم ألفوها فى كل فن ، والتى أصبحت أساس كل تقدم فكرى فى العصر الحديث .

٤ — اضطرار هؤلاء المترجمين والمؤلفين إلى الرجوع إلى معاجم اللغة العربية لاستنباط المصطلحات العلمية التى يحتاجون اليها ، ونبه ذلك الأذهان إلى قيمة هذه المعاجم وقيمة اللغة نفسها .

٥ — المدارس الحديثة : فقد كثرت فى عهد محمد على ثم فى عهد إسماعيل

وساعدت على تخرج طبقة مثقفة تؤمن بالأدب ، وتستعمل العبارة السليمة في التعبير عما تريده ولولا هذه المدارس لما وجدت هذه الطبقة المثقفة التي آمنت بالإصلاح وجاهدت في سبيله .

٦ — الجمعيات العلمية — التي كانت نتيجة للنهضة الصحفية . وهي جمعيات علمية تهدف إلى النهضة الأدبية والسياسية . وقد سبق السوريون غيرهم إلى تكوين هذه الجمعيات نتيجة لاتصالهم بالأجانب الذين وفدوا للتبشير والتعليم — وقد عنيت هذه الجمعيات بالخطابة ، وبالتعليم وبالفن وكان لذلك أثر كبير في نهضة النثر ، لما يلقى في هذه الجمعيات من خطب أو يبحث من موضوعات ، أو يرسل إلى الصحف من مقالات ، ومنها جمعية (زهرة الآداب) التي تأسست في بيروت سنة ١٨٧٣ للتمرن على الخطابة وقوة الحجة . وجمعية (المقاصد الخيرية) التي سعت من سنة ١٨٨٠ لترقية ناشئة المسلمين بإنشاء المدارس للبنين والبنات ، وجمعية (يقظة الفتاة العربية) ، و (المعهد العلمي المصري) الذي أنشأه نابليون . وجمعية (رواق الشوام) بالأزهر . والجمعية الخيرية الإسلامية ، وهي غير الجمعية الموجودة اليوم ، وكانت تهدف إلى النهوض بالحياة الأدبية والعلمية ، وهكذا في كل بقاع العالم العربي نشأت هذه الجمعيات وساعدت على النهوض بالنثر .

٧ — المكتبات العربية والمتاحف الإسلامية : أما المكتبات فمنها (دار الكتب المصرية) ومكتبة الأزهر ، وكثير من المكتبات الخاصة أو الملحقة بالجهات العلمية . وقد فتحت أبوابها للمثقفين وساعدت على نهضة النثر وترقية أسلوبه . وأما المتاحف فمن أشهرها دار الآثار العربية سنة ١٨٦٩ م . وفيها كثير من المشاهد والمحفوظات والآثار ، ما يرضي متعة الأديب وينهض بثقافته ويساعده في إنتاجه .

٨ — التمثيل : وقد كان افتتاح قناة السويس سبباً في إنشاء دار الأوبرا المصرية (١٨٦٩ م) لتمثل فيها المسرحيات . وقد ترجم لهذا الغرض كثير

من المسرحيات التى لا نعدها من أدبنا لضعفها فى اللغة ، ولتغيير فكرتها الأصلية على يد المترجمين . ثم ظهرت تمثيليات مصرية ومترجمة ترجمة صحيحة وهذه ولا شك ذخيرة جديدة للنثر العربى . وقد أنشأ يعقوب بن صنوع وشهرته (أبو نضارة) أول فرقة تمثيلية بمصر سنة (١٨٧٠) . ثم حضرت إلى مصر فرقة تمثيلية نجحت على مسرح (زيزنيا) بالإسكندرية أولا ثم اتجهت إلى القاهرة فدفعت المصريين إلى الميدان . ووجدت نهضة تمثيلية فتحت ميداناً جديداً للتأليف والترجمة .

٩ — المطابع : حمل الفرنسيون معهم مطبعة فعرف المصريون قيمة المطابع . ولهذا أنشئوا المطبعة الأميرية ثم توالت المطابع بعدها . وأخذت الصحف تحضر لها مطابع خاصة ، ثم تكونت دور لنشر الكتب ورخص ثمنها وكثر إنتاجها . ونحن ليوم نشهد طباعة ممتازة سريعة هى ولا شك من أهم الأسس فى نهضة النثر ، وغيره من الفنون الأدبية والعلمية .

١٠ — الاتصال بالأدب الغربى : وسنحدثك عنه فى باب خاص بعد ذلك .

١١ — إنشاء معاهد أدبية لتخرج أساتذة اللغة العربية ، الذين يرجع إليهم ولا شك أكبر الفضل فى التقدم بالنثر الأدبى فى هذا العصر — وأول هذه المعاهد ظهوراً فى الميدان (دار العلوم) التى أمدت الحياة الأدبية برجال لهم أثرهم المحمود - ثم شاركها فى أداء الرسالة (كلية اللغة العربية) بالأزهر وقسم اللغة العربية بكليات الآداب فى الجامعات المصرية .

١٢ — دخول المرأة إلى الميدان الأدبى : فقد كان من نتائج تحررها أن شاركت الرجل فى كثير من ميادين الحياة . ومن أهمها ميدان الأدب ، والأدب ابن العاطفة والخيال ، والمرأة أقرب الناس إلى العواطف والخيال .

والذى يقرأ اليوم للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) والدكتورة (سهير القلماوى) ويشاهد نشاط الكثيرات من نساء العرب فى

الإنتاج الأدبي - يعرف مقدار ماقدمته للأدب من خدمات جليلة .

١٣ — ظهور النقد الأدبي كعامل مهم من عوامل النهوض بالأدب . فالأديب حين يرى النقاد يترقبون إنتاجه الأدبي بحرص ، ولاشك على الإجادة ، وللأساتذة : الشايب ، مدكور ، ضيف ، مندور إنتاج نقدي موجه ، له كبير الأثر في حياة النثر فكرة وعبارة .

١٤ — الإيمان بالأدب العربي القديم كزاد قوي لكل أديب في عصرنا مهما كانت ثقافته الحديثة . وقد رأينا كثيراً من أدبائنا الذين نهلوا من الثقافة الغربية يرجعون إلى أدبنا القديم فيخرجونه في صورة جديدة حية - (طه حسين في على هامش السيرة ، وفي الفتنة الكبرى - العقاد في العبقريات هيكل في الصديق أبو بكر ، وعمر الفاروق) وهذه ناحية . وهناك ناحية أخرى هي العودة إلى التراث العربي القديم . وإعادة طبعه بعد مراجعته وتنقيحه ، والعمل هنا ضخم كبير . ومن أمثلته (رسالة الغفران لبنت الشاطىء . تفسير الطبري للشيخين الأخوين محمد وأحمد شاكر) ودار المعارف تطبع سلسلة قيمة في هذا الميدان باسم ذخائر العرب .

١٥ — العناية بالقصة والنوادي والمجلات الأدبية - ومظاهر ذلك في (نادي القصة - مجلات الرسالة ، والثقافة والكتاب والكاتب المصري والهلال ، والرسالة الجديدة) .

ويؤسفنا هنا أن نسجل ألمنا لاختفاء أكثر هذه المجلات في الفترة الأخيرة نتيجة لانتشار الصحافة الرخيصة وإن كان الأمل كبيراً في العودة إلى العمل المجيد في الميدان الأدبي .

١٦ — الرقي العقلي وتقدم الحضارة - فقد شمل التقدم كثيراً من النواحي وتعددت أسبابه ، وهذه وسائل الاتصال بأوربا - والإذاعة والرياضة - والفنون المختلفة كالتصوير والرسم والنحت والموسيقى والأساتذة

الزائرون والنوادى العلمية — كل ذلك له أثره فى النثر الحديث .

أثر الأدب الغربى فى النثر :

عرفنا أن الأدب الحديث قد تأثر بعاملين هما : الأدب العربى القديم والأدب الغربى الحديث ، وأن معركة القديم والجديد قد قامت بين أرباب الأدبين ، ثم حدث بينهما تقارب وامتزاج إلى حين لأن هذه المعركة تجددها الأيام — على أن رجوعنا إلى الأدب القديم كان فى نفسه نتيجة لاتصالنا بالأدب الأجنبي ، ولتوجيه كثير من المستشرقين .

ولا يعيب أدبنا اليوم أن يستفيد من الأدب الغربى . فقد كان لنا الفضل عليهم حين بدأت نهضتهم فى كل ميدان من ميادين الحضارة لا فى ميدان النثر الأدبى وحده . وهذا هو شأن الحضارات فى كل عصر .

وهذه فكرة موجزة عن آثار الأدب الغربى فى نثرنا الحديث :

١ — فى الفكرة :

ا — أصبحت هى المقصود الأول للكاتب — فقد كان اللفظ مقدما على المعنى عند كثير من أدباء العرب . وإن نادى بعضهم بأن اللفظ جسم والمعنى روح ، وفضل الروح على الجسم ظاهر ، فإنهم كانوا يهتمون باللفظ عندما يكتبون . أما اليوم فالمعنى هو الهدف الأول ، واللفظ وسيلة تعبيرية إلا أن بعض كتابنا اليوم يهمل العنصر التعبيرى ، ولا يستطيع التحرر من سيطرة اللغة الاجنبية ، وبخاصة حين يكون غير متمكن من اللغة العربية . أو حين يكون الموضوع علمياً . فنياً فيه تعبيرات اصطلاحية دقيقة أو جديدة .

(ب) العمق : فقد كان كثير من الأفكار سطحياً يتناوله الكاتب تناولا هيناً ، ثم أصبحنا اليوم نصل إلى الفكرة ونبحث المؤثرات التى انتهت إليها .

(حـ) التجديد والابتكار : ونحن نعلم أن الأديب يستمد أفكاره من منابع ثلاثة . أفكار الماضين وصور الحياة المحيطة به ، والمستقبل كما يفهمه ذهنه المتحرر الثاقب . وقد غلبت علينا صور الحياة المحيطة بنا والمستقبل كما يدركه الأديب . وإن عاد الأديب منا إلى الماضى أبرزه فى ثوبه الجديد الحىّ .

(ى) أصبحت الفكرة تخدم غرضاً إصلاحياً ، فبعد أن كان الأديب العربى يكتب فى بعض الأحيان رسالة إلى صديق لا يهدف من ورائها إلا إلى إظهار حبه أو وفائه أو لومه . أصبحنا اليوم نجد الهدف الإصلاحى أساساً فى النثر . ولا يقال إن بعض صور النثر عاطفى لا يقصد منه إلا المتعة الفنية فإن المتعة الفنية هدف يقصد لذاته لأنه يرضى العواطف ويشبع الأحاسيس .

٢ — فى التعبير (ا) خلا التعبير النثرى اليوم من المحسنات البديعية المتكلفة ، ومن الزخرف اللفظى ، ومن الضعف وابتذال الألفاظ . وأصبح حراً سهلا واضحاً سلساً فيه حيوية وقوة واتساق وتوازن .

(ب) اتجه التعبير إلى الدقة والبعد عن الغموض الذى كان غرضاً من أغراض التعبير القديم .

(حـ) بعض صور التعبير الأوربى أصبحت مألوفة فى التعبير العربى .

٣ — فى الغرض : (ا) تنوعت الأغراض . فبعد أن كان النثر العربى القديم لا يخرج عن ميدان الخطب والرسائل ، أصبح اليوم يتناول نواحى الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتاريخية والنفسية ، ويتناول حقوق الأفراد والجماعات ومشاكل الأسرة والأطفال ، وأحوال المرأة والشباب والشيوخ ، وكل أمور الحياة .

(ب) ظهرت ألوان جديدة لم تكن موجودة من قبل ، كالنثر الصحفى الذى لم يعرفه العرب قديماً ، وألوان كانت موجودة ولكن فى صورة

بدائيه لم تكتمل خصائصها الفنية كالقصص والمسرحيات إذ ظهر منها لون واحد فى محاولة ناقصة هو (المقامة) أما المسرحية والرواية الطويلة فلم تكن موجودة أيضاً .

٤ — على أن هناك آثاراً أخرى وراء الفكرة والتعبير والغرض منها :

(١) نظام التأليف . فقد أخذ أدباؤنا عن الغرب منهجه فى تأليف الكتب وترتيبها وتبويبها .

(ب) نظام الفهارس . الذى أصبح من لوازم الكتب الحديثة ، الذى عرفناه عن الغرب .

(حـ) دراسة تحليلية مرتبطه بالبيئة ، والبحث عن الوارثة وكل العوامل المؤثرة فى الشخصية بحثاً ينتهى بتحديد معالم الشخصية .

٤ — الاهتمام بالأبحاث النفسية ، وبخاصة فى القصة والمسرحية . مع الاعتماد فى مذاهب الفلسفة الغربية المتعددة فى كثير من ألوان البحث التى يتناولها الناثرون .

الترجمة وأثرها فى نهضة الآداب والعلوم

مقدمة :

(١) درست فى العام الماضى اتصال الأدب العربى بالأدب اليونانى والفارسى وأثر ذلك ، وفى هذا العصر الحديث عاد هذا الاتصال ولكن بالأدب الغربى ، بعد أن هبطت الثقافة العربية إلى درجة أشبه بالاحتضار .

(٢) وكان مبدأ هذا الاتصال أيام الحملة الفرنسية التى فتحت عيون المصريين وأفكارهم إلى أن فى الغرب علماً هو كالسحر . فتيقظت عقولهم وانتبهوا إلى ما يجرى حولهم . وكانت أوربا قد خطت خطوات واسعة فى تثبيت دعائم حضارتها على أسس من العلم ومستحدث التجارب .

(٣) ولما تهيأت للمصريين أسباب النهوض رأوا أن يرسوا دعائم

نهضتهم على هذه الأسس التى تقوم عليها الحضارة فى أوربا . وكان سبيلهم فى ذلك الترجمة التى سارت فى مراحل أربع :

المرحلة الأولى : (١) أنشئت المدارس العالية فى مصر فى عهد محمد على كالطب والهندسة وكان من الصعب تعليم الطلبة هذه العلوم الحديثة الذائعة بأوربا لأنهم لا يتقنون اللغات الآجنبية ، وكان المعلمون الذين ندبوا لتدريس هذه العلوم لا يعرفون العربية ، فقام بترجمة هذه الدروس طائفة من المترجمين من المغاربة والسوريين والآرمن . وقد اضطر المترجمون إلى مراجعة المعاجم اللغوية والكتب القديمة كمفردات ابن البيطار وقانون ابن سينا وكليات ابن رشد وغيرها لاستخراج المصطلحات العلمية والتعبيرات التى تحل محل مثيلاتها الأجنبية كما اضطروا إلى صياغة تعابير جديدة إذا لم يسعفهم القديم ، وقد آثروا أحياناً الكلمات الآجنبية .

٢ — ولم تنجح هذه الطريقة ، فالنهضة يجب أن يرسى أساسها أبناء البلاد أنفسهم ، ولذا يجب أن يتزودوا من العلم فى موطنه الأصلى، فأرسلت البعثة الأولى إلى فرنسا سنة ١٨٢٦ م من أربعين طالباً ، ثم توالت البعثات إلى سنة ١٨٥٠ ، وبلغت إحدى عشرة ، لدراسة الحقوق والعلوم السياسية والهندسة الحربية والطب والزراعة ، مما تتطلبه النهضة الحديثة . ولما عاد أعضاء هذه البعثات أقاموا بالقلعة وتولوا ترجمة الكتب التى درسوها وطبعت ووزعت على المدارس ، وقد راجع هذه الكتب لتهذيب تعبيرها طائفة من المصححين من رجال الأزهر الذين اضطروا إلى مراجعة الكتب العربية القديمة التى ألفت فى هذه العلوم أو ترجمت أيام العباسيين لاختيار الكلمات أو اختيار الصيغ الفنية التى تتطلبها الترجمة الحديثة فأدى عملهم هذا إلى زيادة ثروة اللغة العربية عندهم وقد ألفوا كتباً تجمع هذه المفردات أو الصيغ «الشذور الذهبية فى الألفاظ الطبية للشيخ محمد عمر التونسى» .

(٣) الترجمة ومدرسة الإلسن ورفاعة الطهطاوى : أرسل رفاعة واعظاً مع إحدى البعثات ولكن لطموحه . تعلم الفرنسية وأتقنها فى ثلاث سنوات

ومال إلى التعريب وهو بفرنسا فعرب إثنتى عشرة رسالة فى مختلف العلوم والفنون ، فلما عاد إلى مصر خدم بلاده عن طريق الترجمة :

ا — تولى منصب الترجمة وتعليم اللغة الفرنسية بمدرسة الطب ثم بمدرسة المدفعية وترجم العلوم الهندسية والفنون الحربية .

ب — اقترح إنشاء مدرسة الألسن تدرس فيها الفرنسية والتركية والفارسية ثم الإيطالية والإنجليزية ، وهى تشبه كليتى الآداب والحقوق مجتمعتين وكانت الدراسة فيها عملية ، يمرن الطلبة على الترجمة من كتب نافعة ثم يعرض عملهم على أساتذة اللغة العربية لإصلاح تعبيرهم ، ولما تخرجت الدفعة الأولى تهافتت المصالح الحكومية على طلبتها الذين أفاضوا على النهضة ببحور زاخرة من العلم الأوربى ، ولكن أغلقت هذه المدرسة فى عهد عباس الأول عدو النهضة فركدت حركة الترجمة .

فضل رفاعة ومدرسة الألسن :

(١) ترجمة الكتب العلمية الحربية للنهوض بالجيش .

(٢) لم يظفر الأدب فى هذه الفترة إلا بقليل أهمه رواية « تليماك » التى ترجمها « رفاعة » وكتاب « فولتير » الذى ترجمه «أحمد عبيد» .

(٣) ومع ذلك استفادت اللغة العربية ثروة زاخرة من الكلمات والمصطلحات العلمية التى تؤدى مثيلها فى العلوم الأجنبية ، وخضعت أساليبها نوعا ما لعلوم الغرب .

(٤) ترجمة قانون نابليون عند ما عادت مدرسة الألسن وأرادت الحكومة إصلاح القضاء ، ترجمه رفاعة وبعض تلاميذه ، وقد تطلب ذلك العمل منهم جهوداً شاقة وإلماماً بالقوانين الفرنسية وأحكام الشريعة الإسلامية لاختيار المصطلحات الفقهية لمثيلاتها فى القانون الفرنسى .

المرحلة الثانية : عهد إسماعيل (١) ترجمت بعض كتب الهندسة والطب والصناعات والفنون العسكرية وأعيد فتح مدرسة الألسن سنة ١٨٦٨

ورجع إليها رفاعة إلى أن توفى سنة ١٨٧٣ ، وبلغ عدد الكتب التى ترجمت فى الفترتين الأولى والثانية حوالى ألفى كتاب ورسالة بفضل مدرسة الألسن وطلبتها قادة الحركة العلمية الذين أخذوا يدفعون النهضة إلى الأمام دفعاً قوياً : « رفاعة — محمد على البقلى — ابراهيم الدسوقى — على مبارك »

(٢) مال بعض تلاميذ رفاعة إلى الأدب ومن أشهرهم محمد عثمان جلال الذى ترجم بعض مسرحيات موليير وراسين ومصرها ، وأمثال لافونتين وسماها « العيون اليوافظ » كما ترجم « بول وفرجينى »

(٣) ظهر فى هذه الفترة يعقوب بن صنوع المصرى الذى أنشأ أول مسرح عربى بمصر سنة ١٨٧٠ وترجم له الروايات الأجنبية . وتصادف أن هاجر إلى مصر بعض أدباء سوريا فراراً من الظلم التركى ، أو جرياً وراء النجاح الأدبى فى مصر ، ومن هؤلاء أديب إسحاق وسليم نقاش اللذان اشتركا فى إقامة مسرح آخر عربى سنة ١٨٧١ وترجما له أيضاً شتى المسرحيات الأوربية ، وزاد ما ترجم لهذين المسرحين عن خمسين مسرحية .

المرحلة الثالثة : عهد الاحتلال : (١) رأى المصريون أن الأجانب قد زاد نفوذهم بمصر بعد فرض المراقبة الثنائية على مالية البلاد وتعيين وزيرين أجنبيين فى الوزارة ، وأنهم يعتدون بجنسياتهم ولغاتهم ، وتهتم مدارسهم وإرسالياتهم بتعليم هذه اللغات التى تتيح للمتفوقين نجاحاً فى الميادين الاقتصادية والسياسية . كذلك يتمتعون بامتيازات تجعلهم سادة ، فاهتموا بتعلم هذه اللغات قبل الاحتلال ليحصلوا على شيء من ذلك . وتقدم ناظر المعارف سنة ١٨٨٠ يطلب إنشاء مدرسة (دار العلوم التوفيقية) لتخريج مدرسين للغات الاوربية والعلوم الغربية على غرار (دار العلوم) العربية ، رغم وجود مدرسة الألسن التى ضعفت واقتصرت على تعليم الإنجليزية والفرنسية والعربية . وفى سنة ١٨٨١ أنشىء قلم الترجمة والتحرير وتولى إدارته أديب إسحاق السورى .

٢ — احتلت البلاد سنة ١٨٨٢ وفرض الإنجليز لغتهم على جميع المدارس سنة ١٨٨٩ وحولوا قلم الترجمة والتحرير إلى مدرسة المعلمين الخديوية لتخريج مدرسين مصريين لتعليم اللغة الإنجليزية بالمدارس الابتدائية وأصبحت جميع المواد تدرس بالإنجليزية حتى سنة ١٩٠٨ إذ ألغى هذا القرار الجائر الذى يتنافى وكرامة مصر . وحلت اللغة العربية ثانياً محل اللغة الإنجليزية وإن ظل الطلبة الذين ابتدءوا تعليمهم بالإنجليزية يواصلون التعليم بهذه اللغة إلى سنة ١٩١٩ .

٣ — ألغى الإنجليز البعثات الفرنسية سنة ١٨٩٥ وغيروا منهج مدرسة الطب وجعلوا التدريس فيها بالإنجليزية ليحولوا بينها وبين أداء رسالتها فى نقل الطب الغربى إلى اللسان العربى . وفعلوا مثل ذلك بمدرسة الهندسة وهذا النظام سائد إلى الآن .

٤ — ومن هذا نرى أن سياسة الاحتلال أوقفت تيار مد اللغة العربية بالكلمات والمصطلحات العلمية الجديدة .

٥ — ولكن على الرغم من ذلك استطاعت اللغة العربية أن تقاوم هذا الطغيان وتسترد سلطانها المفقود بعد جهد وتعب فترجم فتحى زغلول (أصول النواميس والشرائع) وعزيز خانكى (الطعن فى الأحكام بطريق النقض والإبرام) سنة ١٩٠٠ وجمعية التعريب (الاقتصاد السياسى) سنة ١٨٩٢ وفتحى زغلول (روح الاجتماع — تطور الأمم — سر تقدم الانجليز السكسونيين) من كتب الاجتماع .

٦ — اشتدت حركة ترجمة القصص والمسرحيات على يد الأدباء السوريين « صلاح الدين لولترسكوت — السيد ، لكورنى — هر نانى ، لفكتورهوجو — روميو وجوليت لشكسبير — والبخيل ، لموليير » ترجمها الشيخ نجيب الحداد .

٧ — وكان من أثر ذلك أن احتذى الأدباء المصريون هذه الكتب المترجمة . فظهرت روايات جورجى زيدان « ١٨ قصة » ولكن تنقصها

بعض الشروط الفنية فى القصة ثم ظهر «حديث عيسى بن هشام» للمويلحى على مثال المقامات ولكنه يميل إلى الوصف أكثر من القصص - كما سبق .

٨ — كان من أثر الترجمة فى الشعر - فى هذه الفترة - أن اهتم بعض الشعراء بالمعانى فأظهر شوقى قصيدته :

همت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تقل الرجاء

ألقاها فى مؤتمر المستشرقين سنة ١٨٩٤ واهتم فيها بالتاريخ المصرى وتأثر بالمنهج الشعرى الذى كان سائداً بفرنسا فى هذه الأيام .

٩ — وعلى الرغم من النكسة التى أصابت الترجمة فى أول عهد الاحتلال فإن اللغة العربية ظفرت بثروة هائلة من الكلمات والمصطلحات العلمية والأدبية واهتم الكتاب بالمعانى وهجروا - إلى حد ما - الزخارف البديعية . وتخلص النثر من قيوده ولا سيما السجع . وتعددت موضوعاته من اجتماعية واقتصادية وعلمية ، وسياسية وأدبية .

الترجمة فى القرن العشرين :

(ا) فى هذا القرن قوى نفوذ اللغة الإنجليزية لما يأتى : —

١ — حل القرن وفى مصر طبقة ممتازة تجيد هذه اللغة فهما وقراءة من أثر القرآن الماضى .

٢ — كثرة المؤسسات التى تقوم بتعليمها من أمريكية وانجليزية وأهمها الجامعة الأمريكية بالقاهرة . كلية فيكتوريا بالاسكندرية .

٣ — جعلها اللغة الأوربية الأولى فى المدارس .

٤ — إنشاء أقسام بكليات الآداب لتخريج مدرسين لتعليمها فى المدارس

٥ — كثرة البعثات إلى إنجلترا لدراسة الاقتصاد والطب والعلوم والتربية .

(ب) كما زاد نفوذ اللغة الفرنسية بعد أن قضى عليها للأسباب الآتية :

١ — تقدم الفرنسيين فى الاقتصاد والقانون والآداب وإرسال بعثات إلى فرنسا لدراسة هذه المواد .

٢ — كثرة المدارس والإرساليات التى تعلم هذه اللغة بمصر . «الليسيه ـ الفرير ـ العائلة المقدسة ـ الفرنسيسكان» .

٣ — جعلها لغة ثانية بالمدارس .

(ح) وقد كان من أثر ذلك أن نادى بعض الزعماء بالاهتمام باللغة العربية وإنشاء مدارس لغة التعليم فيها العربية ، مدارس الشعب التى أنشأها الحزب الوطنى ، كما حرر سعد زغلول التعليم من سيطرة اللغة الإنجليزية أيام أن كان وزيراً للمعارف ولقد اتسع نطاق التعليم بمصرعلى مر الأيام ، وتعددت المدارس والجامعات وكثرت البعثات العلمية الجامعية إلى كثير من بلدان الغرب ، كما أكثرت المصالح من بعثاتها وأصبح لدينا طبقة ممتازة من المتخصصين فى كل فروع العلم والأدب .

(ى) وقد امتازت الترجمة فى هذه الفترة :

١ — بكثرة الكتب المترجمة فى كل علم وفن من شتى اللغات .

٢ — إنشاء مجمع لغوى برياسة الأستاذ أحمد لطفى السيد ليضع كلمات جديدة أو يعرب أو يشتق من الكلمات القديمة حتى تجارى اللغة العربية الحضارة الغربية التى تغزونا بفيض زاخر من العلوم والمخترعات والصناعات وألوان الحضارة والمكتشفات الطبية والكيماوية والعلوم العقلية .

٣ — عنيت المجلات الراقية الأدبية التى ظهرت فى هذه الفتره بتزويد قرائها بكثير من الأبحاث العلمية والأدبية المترجمة .

٤ — العناية بالقصة . فأنشأ الزيات مجلة «الرواية» ولكنها لم تعمر كثيراً . ثم ظهرت «قصص للجميع» . وأنشىء بعدالحرب العالمية الثانية ناد للقصة تولى إصدار مجلة «القصة» ، واشتهر من مترجمى القصص العالمية قبل الحرب العالمية الثانية محمد السباعى وقد ترجم الزيات «آلام فرتر» لجيته الألمانى . وروفائيل للشاعر الفرنسى لامارتين بأسلوب قوى عذب . وترجم طه حسين «زاديج» لفولتير . وقامت لجنة التأليف والترجمة

والنشر بتعريب مجموعة من روائع القصص الغربى الطويل « جان دارك . تس سليلة دربرفيل . الطلسم . السيمفونية الريفية » . وترجم أحمد الصاوى محمد كثيراً من روائع الغرب وغيرهم كثير .

٥ — كذلك عمد الأدباء إلى ترجمة الشعر الأجنبى إلى اللغة العربية نقل سليمان البستانى « الياذة هوميروس » شعراً فى أحد عشر ألف بيت ونشرها سنة ١٩٠٤ فذلل بذلك الشعر العربى للملاحم الطويلة . نقل طه حسين بعض أشعار (بودلير) والعقاد بعض شعر « توماس هاردى » ، وترجم أناتول فرانس «باقة من حديقة أبيقور » وترجم آخرون «سدهانا» وهدية العشاق من الأدب الهندى .

٦ — أنشأ يوسف وهبى مسرح رمسيس سنة ١٩٢٣ وزوده بكثير من المسرحيات الأجنبية المعربة .

(هـ) ركدت حركة الترجمة قليلا أثناء الحرب العالمية الثانية لارتفاع أسعار الورق وانكماش حركة النشر ، وانصراف الأدباء إلى شئون الحرب والسياسة ، ومع ذلك فقد ترجم أثناء الحرب وبعدها عدد من القصص الطويلة من أشهرها . « مدرسة الزوجات لأندريه جيد ـ نابليون ـ لإميل لودفج ـ وازن الأرواح لاندريه مورا ـ وغير ذلك . .

(و) ومع هذا فقد وصلت حركة الترجمة الآن ذروتها . وتناولت شتى المعارف والفنون والعلوم من جميع اللغات . وتكونت هيئات أدبية تعنى بالترجمة والنشر «لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ لجنة الجامعيين للترجمة والنشر ـ دار المعارف » ، واهتمت وزارة التربية والتعليم بها فى العام الماضى ورصدت لها أموالا طائلة لترجمة الروائع من الأدب العالمى وزادت هذه الهيئات فى السنوات الأخيرة .

(ز) اتجهت الترجمة فى هذا القرن وجهة أدبية اجتماعية بعكس الاتجاه العلمى الذى ساد قبل الاحتلال وسبب ذلك أن بعض الكليات العلمية كالطب

والهندسة والعلوم لازالت تفضل الإنجليزية لغة للتعليم على العربية ، ورغم ذلك فقد وضع بعض العلماء معاجم طبية وعلمية مع ما يبذله المجمع اللغوى «المعجم الطبي للدكتور أحمد عيسى وغيره» وذلل علماء الزراعة والاقتصاد والكيمياء والميكانيكا والطبيعة اللغة العربية لتدريس هذه المواد .

(ح) واهتم المترجمون بعلوم الاجتماع والتاريخ وعلم النفس والتربية ، ومن أهم الكتب المترجمة (معالم تاريخ الإنسانية لويلز — روح الجماعات لجوستاف لوبون — علم الاجتماع لدوركايم) . وفى علم النفس أشرف بعض أساتذة الجامعات على إصدار مجلة للأبحاث النفسية المترجمة ، وتعريب عشرات الكتب فى هذا العلم . كذلك ظهرت دراسات أدبية كثيرة معتمدة على خلاصة الفكر العربى « ساعات بين الكتب للعقاد » .

أثر الترجمة والآداب الغربية فى الأدب العربى

أولا — النثر (ا) فى أساليبه :

١ — تحرر النثر من القيود التى كانت تثقله كالسجع والمحسنات البديعية والمقدمات .

٢ — أصبحت السيطرة على النثر الآن لنوعين من الأسلوب : أسلوب القصة ، ثم أسلوب المقالة .

٣ — بعد الكتاب عن الإيجاز لأنه يدعو أحياناً إلى الغموض ومالوا إلى الإطناب لأنه سبيل الوضوح .

٤ — خرج بعض الكتاب على الأسلوب العربى وأخذوا يغمروننا بسيل جارف من الألفاظ الأعجمية والتعبيرات الإفرنجية ، وقد قل ذلك الآن ولا يلجأ إليه إلا ذوو الثقافة العربية الضحلة .

٥ — وصل بعض الكتاب فى الاهتمام بمعانيهم وإهمالهم جانب اللفظ إلى درجة ذهبت بجمال عبارتهم فمجها الذوق ولم تستسغها الأذن .

(ب) في موضوعاته ومعانيه :

(١) تعددت موضوعات النثر وعالجت كل شئون الحياة من اجتماعية وسياسية واقتصادية .

٢ — نقل الكتاب كثيراً من المعانى والأفكار الغربية التى تأثروا بها .

٣ — سار الكتاب على منهج الغربيين فى البحث والكتابة وهذا المنهج أساسه التحليل الدقيق واليسر فى التعبير والميل إلى الوضوح ، حتى يتسنى للقراء فهم المعنى فى سهولة ويسر والتمحيص لتعرف الأسباب والعلل والوصول إلى أحكام صائبة .

٤ — اهتم الكتاب بالحياة الواقعية الحاضرة . فأخذوا منها صورهم ومعانيهم إذ أن موضوعات النثر القديم لا تناسب حياتنا الآن .

٥ — الحرية فى معالجة المسائل الخلقية والاجتماعية ومشكلات الحياة .

٦ — الاهتمام بالمعنى أكثر من اللفظ .

٧ — يعتمد الأدب الغربى فى معالجة الموضوعات المختلفة على القصة ، فحذا الكتاب المصريون حذوهم ، وصار لنا فيض من القصص التى تعالج نواحى الحياة المتعددة ، وبرع الكتاب فى المسرحية النثرية ، وأجادوا فى الأقصوصة إجادة تامة .

٨ — العمق فى الفكرة والاستفادة من التجربة مع السهولة والوضوح إلى درجة تقرب الأسلوب من عقول العامة مع صحة العبارة وسلاستها .

ثانياً : الشعر : (ا) فى أوزانه وأساليبه :

١ — بدأ الشعراء يجددون فى الأوزان الشعرية فظهرت المسدسات والمسبعات والمثمنات وكان من أثر ذلك ظهور المسرحية الشعرية ، وسبب ذلك تصرف الشعراء فى الرباعيات والموشحات .

٢ — قطعت القصيدة مقطعات لكل مقطعة قافية تستقل عن أخواتها .

٣ — ظهر الشعر ذو القوافى المرسلة أو المزدوجة أو المتقابلة .

٤ — لم يعد البيت وحدة القصيدة بل صارت مرتبطة محكمة البناء .

٥ — ظهرت القصة الشعرية والملاحم الطويلة تقليداً « للإلياذة » التى ترجمت من أدب الغرب .

٦ — تحرر الشعر من القيود الصناعية والبديعية إلا ما جاء عفواً .

(ب) فى أغراضه ومعانيه :

١ — اختفت بعض الأغراض القديمة التى لا تتناسب والحياة الجديدة . اختفت الحماسة وحل محلها الشعر الوطنى : وعرف الأدب العربى لأول مرة الأناشيد الوطنية . ونشأ ذلك من الاحتلال فأغرم الشعب بالحرية يتغنى بها ونقل الشعراء نظام هذه الأناشيد عن الغرب — وتحول الفخر إلى الفخر بالأمة وتاريخها المجيد . وانتهى الهجاء إلا مداعبات لطيفة . وتحول المدح إلى تمجيد البطولة والأعمال الوطنية الخالدة فى شخص أصحابها . واتسع باب الوصف وبخاصة فى وصف مناظر الطبيعة مجاراة للأدب الغربى — وشمل كل شىء فى الحياة ، وتناول الآثار والمخترعات الحديثة . وأفردت له قصائد خاصة .

٢ — وظهر الشعر الاجتماعى الذى يصف أمراض المجتمع وعلاجها . وشعر الوجدانيات التى أصبحت لها قصائد خاصة بعد أن كانت تأتى عرضاً فى ثنايا القصائد .

٣ — سيطرت المدرسة الإبداعية (الرومانتيكية) على الشعراء فى مستهل هذا القرن . ثم راج المذهب الواقعى . ولكن انحرف بعض الشعراء إلى مذاهب بعيدة عن الذوق العربى كالرمزية «إيليا أبو ماضى» والسريالية التى تميل إلى الحرية المطلقة والخروج على كل عرف وتقليد «كامل أمين» . ومن حسن الحظ أن هؤلاء قلة وشعرهم ضعيف لا يحفل به وبخاصة السريالية .

٤ — علت الشعر فى السنين الأخيرة مسحة من القطوب حتى فى

الابتسامة المستكرهة لتعقد الحياة وكثرة المشكلات التى أرهقت إحساس الشعراء ورققت من شعورهم.

٥ — تأثر كثير من الشعراء بالمعانى والخيال الغربى ، فاختاروا صورهم وتشبيهاتهم جميلة مؤثرة لا يقصد منها الصبغة ، ولكن يقصد التعبير والأداء الجيـــد .

٦ — أصبح الشعر يعبر عن تجربة ذاتية للشاعر .

أثر عام : تعريب كثير من الكلمات ، ودخول اللغة العربية عدد وفير من المصطلحات الأدبية وأساليب التعبير الغربية . فأصبحت اللغة اليوم قادرة على مجاراة الآداب الغربية مهما سما شأنها .

أثرها فى العلوم :

١ — أصبح فى استطاعة المدارس الثانوية تدريس العلوم باللغة العربية فى سهولة (الرياضيات — الطبيعة — الكيمياء — الفلك — المنطق — الفلسفة) .

٢ — دخل اللغة العربية آلاف من الكلمات العلمية والفنية ومصطلحات العلوم . مكنت اللغة من مسايرة العلم الغربى .

٣ — لازالت هناك بعض فروع العلم تدرس باللغة الأجنبية (الطب . النبات . المعادن . الصيدلة . الميكانيكا) ونحن نرجو أن تشمل الترجمة هذه العلوم وأن تستفيد فى هذا السبيل بما بذله علماء النهضة الأوائل . وجهود مجمع اللغة العربية والمجتهدين من علمائنا المتأخرين .

الشعر فى العصر الحديث

نماذج لأغراض الشعر

[١] شعر الوطنية :

ا — لإسماعيل صبرى (١)

لا القومُ قَوْمِى ولا الأعوان أعوانى　　إذا وَنَى يومَ تحصيلِ العلا وانى

وَلَسْتُ — إن لم تُؤَيِّدْنِى فراعنةٌ　　منكم بفرعونَ عالِى العرشِ والشّان

وَلَسْتُ جَبَّارَ ذا الوادى إذا سَلِمت　　جباله تلكَ من غاراتِ أعوانى

لا تَقْرَبوا النيلَ إن لم تَعْمَلوا عملاً　　فماؤُهُ العذبُ لم يُخْلَقْ لكسلان

التعليق :

الأبيات ذات أسلوب خطابى ، فقد تمثل الشاعر فرعون يخاطب قومه ويغريهم بالسبق فى ميادين المجد ، فهو يبرأ منهم إن لم يجدّوا فى تحصيل أسباب القوة ، وإن لم يكونوا — فى مثل حاله — قدرة على العمل والبناء .

ويحرص الشاعر فى القصيدة كلها على هذا الأسلوب القوى ، ويستخدم تلك القوالب التمثيلية المثيرة ، ويمضى معتزاً بمصر وبما ترك الآباء بها من آثار شاهدة بعظمتهم التى :

لو أنها أعطيت صوتاً لكان له　　صدى يروع صم الإنس والجان

---

(١) إسماعيل صبرى : كان يلقب بشيخ الشعراء ، وهو ممن درسوا الحقوق واطلعوا على الأدب الفرنسى ، وامتاز برقة الطبع ، وجمال الذوق ، ولهما أثر واضح فى عذوبة أسلوبه ، وصفاء عباراته وحسن ابتكاره .

ب — لحافظ ابراهيم

وقد انتفع بمسلك إسماعيل صبرى التمثيلى ، إذ جعل قصيدته على لسان مصر التى مضت تتحدث عن أمجادها ، وختمها بهذه الأبيات الحماسية التى تسودها نزعة التحذير والأسى :

إن فى الغرب أعينا راصدات ... كحلتها الأطماع فيكم بسهد
فوقها مجهر يريها خفايا ... كم ، ويطوى شعاعه كل بعد
فاتقوها بجُنة من وئام ... غير رثّ العرا وسعى وكد
نحن نجتاز موقفاً تعثر الآ ... راء فيه وعثرة الرأى تردى
ونعير الأهواء حرباً عواناً ... من خلاف والخلف كالسل يعدى
فقفوا فيه وقفة الحزم وارموا ... جانبيه بعزمة المستعد

التعليق :

يحذر الشاعر من الغرب الطامع الساهر العليم بخفايانا ، وما بيننا من خلاف تثيره الأهواء ، وتقويه حيل الغرب ومكايده ، ويدعو إلى أن نتق هذه المكايد بجنة من وئام ، وبوقفات الحزم ، وعزائم المستعدين .

والقصيدة ذات موضوع واحد ، وتبدو فيها السهولة المحكمة ، ودقة الاختيار للألفاظ والصيغ ، والاتساق الموسيقى بين العبارات ، وقد جاءت قوافيها طبيعية مستقرة ، وحرص الشاعر على أن يذيل أكثر أبياته بحكم موجزة : وعثرة الرأى تردى ، والخلف كالسل يعدى .

ونزعة التصوير فيها واضحة : أعينا كحلتها الأطماع ـ فوقها مجهر ـ وئام غير رث العرا .

حـ — لأحمد زكي أبي شادي (١)

المتوفى سنة ١٩٥٢ يتحدث عن معركة القناة سنة ١٩٥١ ويخاطب قومه :

حذراً بني وطني وكونوا وحدة	فعـــالة لا ضجة وحناجرا
لا تأسفوا مهما حزنتم الألى	ذهبوا الضحايا فى القناة حرائرا
خلوا التغنى بالجدود وفضلهم	مهما تلألأ روعة ومفاخرا
كونوا من الشهداء فى إعجازكم	بثباتكم لا تجعلوه العـــابرا

التعليق : فى هذه القصيدة لم يتحدث فرعون ، ولم تتحدث مصر ، وإنما تحدث الشاعر إلى بنى وطنه يحذرهم من التفرق ومن الانصراف إلى ضجيج الحزبية ومن الأسف لفقدان الضحايا ، وينهاهم عن الاكتفاء بالفخر بالآباء ويحثهم على الثبات والاستشهاد .

والمعانى عادية ، وإن عرف الشاعر بالاهتمام بها والتعمق فيها والأساليب ضعيفة النسج ويتمثل هذا الضعف فى قوله : ذهبوا الضحايا فى القناة حرائراً ، وفى قوله : لا تجعلوه العابرا وهى إلى ضعف نسجها تافهة جداً فى هذا المقام الوطنى العظيم .

د — لعلى الجارم (من قصيدة له فى العروبة)

لقد كان حُلماً أن نرى الشرق وحدة	ولكن من الأحلام ما يتوقع
فليست حدودُ الشرق تفصل بيننا	لنا الشرقُ حدٌّ ، والعروبة موقع
تذوب حشاشاتُ العواصم حسرةً	إذا دَمِيت من كف بغداد إصبع
ولو صُدعت فى سفح لبنان صخرةٌ	لدكّ ذرا الاهرام هذا التصدع

---

(١) طبيب ولع بالأدب فدرسه ، ووقف على ذخائر الأدب الإنجليزى فاستفاد . وقد هاجر إلى نيويورك فراراً برأيه الحر ، وظل بها حتى مات . وله نشاط صحفى خدم به الأدب ودواوين شعرية متعددة وهو من شعراء الفكرة لا الأسلوب .

ولو «بَرَدَى» أنت لخطبٍ مياهُه لسالت «بوادى النيل» للنيل أدمع
ولو مس «رضوى» عاصف الريح مرة لباتت له أكبادنا تتقطع

التعليق : وتلك نغمة جديدة من نغمات شعر الوطنية وقَّعها شعراؤنا حين هيأت الاحداث الجسام الشعوب العربية لإدراك ما جناه عليها تفرقها وما ستغنمه بالالفة والتكتل، وقد غذَّى الشعر هذه النزعة العربية الموفقة ووقف بجانب الجامعة العربية الناشئة يبارك مولدها ويشد أزرها . وللجارم فى هذا الميدان شعر كثير ، وهده الابيات من قصيدته المقررة ، فالوطنية اليوم لاتعرف الاعتزاز بالوطن الصغير وحده ، وإنما تعتز بالوطن الاكبر الذى يضم الشعوب العربية ، ونحن نحس اليوم وقوف العرب جميعاً إلى جانب مصر فى نزاع قناة السويس .

والشاعر سعيد بأن تتحقق للشرق الوحده التى كان يستبعدها الكثير ويعدونها حلماً ، وقد صور هذه الوحده تصويراً شعرياً ، فالاصبع الدامية من كف بغداد تذيب العواصم العربية الاخرى ، والصخره المتصدعة بسفوح لبنان تتداعى من أجلها ذرا الاهرام ، وأنين بردى (وهو نهر بدمشق) تسيل له عين النيل دموعاً ، ورضوى (جبل بالحجاز) عصفت به ريح الاحداث لتقطعت عليه أكبادنا هماً .

وتدل هذه الأبيات على تمكن الشاعر من اللغة : فقد أجاد اختيار الألفاظ ، وتأنق فى صياغتها ، وأشاع فيها جداً من الانسجام والموسيقى ومراعاة النظائر : فصخرة لبنان تقابلها ذروة الأهرام ، وبردى يقابله النيل .

(هـ) الرافعى من نشيد ، اسلمى يامصر :

اسلمى يامصر إننى الفدا ذى يدى إن مدت الدنيا يدا
أبداً لن يستكينى أبدا إننى أرجو مع اليوم غدا
ومعى قلبى وعزمى للجهاد ولقلبى أنت بعد الدين دين

لك يا مصر السلامه   وسلاماً يا بلادى
إن رمى الدهر سهامه   أتقيها بفؤادى
واسلمى فى كل حين

التعليق :

وفى فترة جهاد مصر من أجل الحرية ، وفى وثبتها الأخيرة اتجه الشعراء إلى وضع أناشيد وطنية تمجد مصر ، وتثير الحماسة ، وتتصل بالأحداث الكبرى . ومنها ماتولاه الملحنون والمغنون ، فكان بنظمه ومعناه ولحنه وغنائه أقوى تأثيراً وأكثر ذيوعاً .

(٢) شعر الاجتماع :

(١) لشوقى من قصيدته فى العلم والتعليم :

وإذا النساء نشأن فى أمّية   رضع الرجال جهالة وخمولا
ليس اليتيم من انتهى أبواه من   هم الحياة ، وخلفاه ذليلا
إن اليتيم هو الذى تلقى له   أمًّا تخلّت ، أو أباً مشغولا

التعليق :

هذه أبيات ثلاثة تتناول أمراً من أمور المجتمع ، إذ يعرض فيها شوقى أثر الأم الجاهلة مقرراً فى حسم يستفاد من أسلوب الشرط أنها لن ترضع بنيها غير الجهل والخمول . ثم ينتقل إلى تحديد طريف لكلمة اليتيم ، فهو لا يراه من فقد أبويه ، واستقبل الحياة بعدهما فى ذلة وضعف وانكسار ، وإنما يراه من تخلت عنه أمه لجهلها ، واشتغل عنه أبوه .

وتلك دعوة صادقة إلى ضرورة العناية بتربية الأم وحسن تخريجها حتى لا يضار الوطن بأبنائه وإلى أن تصان الأسرة بتعاون الوالدين على رعاية الأبناء حتى لا يشعروا بأقسى أنواع اليتم ، وهو فقدان العطف من الأم والأب فى حياتهما — وهذا اللون من الشعر عولج بعد نمو الوعى الاجتماعى والاتصال بالشعوب الأوربية الناهضة .

(ب) لحافظ إبراهيم :

ينوه بقيام السيدات المصريات ، بنصيبهن في الدعوة إلى رعاية الطفولة المشردة :

أيها الطفل لا تخف عنت الدهـر ولا تخش عاديات الليالى
قيض الله للضعيف نفوساً تعشق البر من ذوات الحجال
إى ذوات الحجال عشتن للبـر ودمتن قدوة للرجـال
قمن علمننا المـروءة والعطـف على البائسين والسؤال
قمن علمننا الحنـان على الطفـل شريداً فريسة المغتال

التعليق :

اتجهت الحركة الوطنية إلى العناية بالأعمال الخيرية العامة ، وشاركت النساء فيها كأثر لانتشار التعليم بينهن ، وإسهامهن فى الجهاد الوطنى . فألفن جمعيات للبر حينا ، وضممن جهودهن إلى جهود الرجال فى جمعيات مشتركة حيناً آخر .

وقد أنشد حافظ هذه القصيدة سنة ١٩٢٨ فى الحفل الذى أقامته السيدات باسم جمعية الطفل — وقد بدأها بخطاب ينشر الطمأنينة والأمن فى نفس الطفل الضعيف ، وعلله بأن نفوساً رحيمة قد نهضت لرعايته ، ثم دعا لهذه النفوس البارة بأن تعيش للبر ، وتظل فى ميدانه قوة يحتذيها الرجال ويتلقون عنها المروءة والعطف والحنان على البائسين والسائلين والمشردين .

وقد أكثر حافظ فى هذه القصيدة من صيغ الخطاب أمراً ونهياً ليحقق المشاركة الوجدانية التى تهز النفوس ، كرر بعض المقاطع « قمن علمننا » « كم يتيم » ، « كم جريح » ، « كم صريع » ، « كم حريق » ، وحرص على ما امتاز به شعره من السهولة مع حسن اختيار الألفاظ .

(ح) لخليل مطران فى مشروع القرش:

يا أنجماً زانت سماء الحمى　　بوركَ فى الفتيان من أنجم
لهم سناها وبهم مثل ما　　يجلو السنى من عزمها المضرم
دعوتم الشعب إلى غاية　　ينشدها من نهجها الأقوم
دار بهـــا يحي صناعاته　　كعهدها فى الزمن الأقدم
تشـــاد بالميسور مما به　　يسخو لها الحبيب ولم يهدم

التعليق :

وهذا مطران ينوه بالشباب الذين فكروا فى المشروع ونهضوا بتحقيقه ، فهو يراهم أنجماً فى الهداية والمضاءة ، لقد هدوا الشعب إلى هذه الفكرة الاقتصادية ، وحققوها بمضاء عزائمهم ، فشيدوا لصناعة الطرابيش داراً تجدد مادرس من نهضة صناعية ، شيدوها بهذا القليل الذى يجود به الجيب .

والشعر شعر فكرة : لا يعتمد على أناقة الأسلوب وإثارة العاطفة ، بقدر مايعتمد على إثارة الفكر . ولهذا لانجد به الصور الشعرية البراقة التى تجتذب المشاعر سريعاً ، ولا النغمات المطربة التى نحسها فى شعر شوقى وحافظ ، وأنت فى حاجة إلى كثير من التأمل لتستنبط من البيتين : الأول والثانى صلة الشبه التى بين الفتيان والأنجم ، مما يدلك على ان صوره الشعرية تثير الفكر أولا قبل أن تثير الوجدان . وستجده فى هذه القصيدة يستعمل ألفاظاً تنقصها النبرة الموسيقية وهى أشد ما تكون ملاءمة للنثر لا للشعر : فالمدرسة يسميها المَعْلَمَ ويعبر عن الشىء الذى نعده عظيماً بالمُعْظَم .

[٣] شعر الوصف :

(ا) لحافظ يصف نادى الجزيرة :

قصدت الجزيرة أبغى النجاة　　وجسمى شواه اللظى فاشتوى
فألفيتُ ناديهـــا زاهراً　　وألفيت ثَمَّ نعيماً ثوى

فأنزلنى مـــنزلاً طيبـــاً ... وروى فؤادى حتى ارتوى

وأطفأ وارف تلك الظلال ... سعير الهجير وحرّ الجوى

وحل الأصيل عقال الشمال ... فهبت بنشر إليها انضوى

التعليـق :

يصف الشاعر الطبيعة بالجزيرة [وهى بقعة بالقاهرة غنية بمظاهر الجمال] وقد أبرز لطف جوها بفراره إليها من لظى يشوى الأجسام ، وتحدث عن ناديها الزاهر الذى أقام به النعيم ، وما أعد به من أماكن للراحة تسكن إليها الأفئدة ، وما امتد به من ظلال وارفة تطفىء وقدة الهجير ، وما يتضوع فى أرجائه من عبير الزهر تحمله ريح الشمال إلى الجالسين .

وقـد ألمّ حافظ فى هذه القصيدة بمواضع الجمـال والحسن فى الجزيرة وناديهـا ، وحرص على لفظه المختار ، وصوره الشعرية الأخاذة ، وتـكرار بعض المقاطع ليثير الشعور :

فقل للحزيـن ، وقل للعليل ... وقـل للملول : هنـاك الدوا

وقل للأديب ، ابتدر ساحها ... إذا البيـان عليك التوى

وقـل للـكب على درســـه ... إذا نهك الدرس منه القوى

وقد بدت صـلته بالأساليب والصور القديمة واضحة فى قوله : حلَّ الأصيل عقال الشمال . فقد جعل الشمال معبراً مقيداً يطلقـه الأصيل .. وتلك صـــورة من رواسب الاطلاع على الأدب القديم تتم بها صلات لا شعورية تربط الفروع بالأصول .

(ب) لشوقى فى الغواصة :

ودبّابةٍ تحت العُباب بمَكْمَن ... أمينٍ ترى السارى وليس يراها

هى الحوت أو فى الحوت منها مَشَابه ... فلو كان فولاذاً لكان أخاها

أبث لأصحاب السفين غوائلا ... وألأم ناباً حين تفغر فاهـــا

خئونٌ إذا غاصت غَدُور إذا طفت مُلْعَنَةٌ فى سَبْحِهـا وسُراها

التعليق :

يصف شوقى مخترعاً حديثاً هو الغواصة : فيجعلها دبابة فى ضخامتها ، تكمن آمنة تحت المـاء وترى ولا تُرى ، ويشبهها بالحوت ثم يعدل فيشبه الحوت بها ويجعله أخاً لها لو كان فولاذاً ، ثم يتناول ماتبثه لأصحاب السفن من غوائل ، ويصورها فى عبارة ذات قوة فى التأليف والموسيقى بالحيوان المفترس يفتح فاه . وفى البيت الأخير تقسيم ألمَّ بصفاتها فى أحوالها كلها غائصة وطافية وسابحة .

وهذه الأبيات تمثل طور الكمال الذى بلغه الشعر المصرى الحديث منذ تلقاه البارودى فمنحه قوة فى الأسلوب .

(حـ) للبارودى يصف حرب إقريطش ويتشوق إلى مصر :

أخذ الكرى بمعاقد الأجفان وهفا[١] السرى بأعنة الفرسان

والليل منشور الذوائب ضاربٌ فوق المتالع[٢] والربا بجِران

لا تستبين العينُ فى ظلماته إلا اشتعالَ أسنة المُرَّان[٣]

والخيل واقفة على أرسانها لطرادِ يوم كريهةٍ ورهان

وضعوا السلاح إلى الصباح وأقبلوا يتكلمون بألسن النيران

حتى إذا ما الصبح أسفر وارتمت عيناى بين رباً وبين مجان

فإذا الجبال أسنةٌ وإذا الوها دُ أعنةٌ والمـاء أحمر قان

فتوجستْ فرط الركاب[٤] ولم تكن لتهاب فامتنعت على الأرسان

فزعت فرجَّعت الحنينَ وإنما تحنانها شجنٌ من الاشجان

ذكرت مواردها بمصر وأين من ماءٍ بمصر منازلُ الرومان

(١) هفا : أسرع (٢) المتالع : ما ارتفع وانخفض من الأرض . وضارب بجرانه : أى متمكن (٣) المران : الروح اللدنة (٤) فرط الركاب : الفرس السريعة .

التعليق :

يصف البارودى معركة ليلية : فقد غلب النوم على العيون فعقد الأجفان ولكن الخيل أسرعت بفرسانها والليل من حولها يلف ما هبط وارتفع من الأرض بظلامه الذى لا تستطيع أن ترى فيه العين إلا أسنة الرماح للمعانها ، والخيل قد أخذت عدتها لدخول المعركة . ولكن الفرسان لظلمة الليل عدلوا عن استخدام السيوف ، واتجهوا إلى المدافع يطلقون قذائفها ولما انقضى الليل وأضاء الصباح نظر الشاعر إلى ماحوله من ربوات وحقول فرأى الجبال قد علاها ذوو الرماح ، والوهاد قد ملأها الفرسان ، وقد غلبت الدماء على لون الماء فأحالته أحمر قانيا . ولما رأت فرسه السريعة ذلك تخوفت وحزنت وأطلقت صهيلها الباكى الحزين لأنها ذكرت ماء مصر الذى كانت ترده فحنت إليه على بعد الشقة . وهو فى حديثه عن فزع فرسه وترجيعها ينظر إلى قول عنترة :

فازورّ من وقع القنا بلبانه وشكا إلىّ بعبرة وتحمحم

وأنت ترى من هذا النص مقدار ما استفاده الشعر المصرى على يدى البارودى ، فقد ارتفع فى اختيار ألفاظه إلى مستوى شعراء العصر العباسى وأحكم تأليف الأسلوب فلا قلق ولا ضعف . ووقع على عبارات وصور انتهت إليه لاطلاعه وحفظه لكثير من روائع الأدب العربى الليل منشور الذوائب — ضارب بجران — فامتنعت على الأرسان — ارتمت عيناى — يتكلمون بألسن النيران] ولعلك تحس موسيقى التأليف فى استقرار القافية ، وفى قوله : وضعوا السلاح إلى الصباح . وفى التقسيم : وإذا الجبال .. وإذا الوهاد .. والماء أحمر قان .

والبارودى مجيد إذا وصف الحرب لأنه من رجالها ، فهى بالنسبة إليه بعض تجاربه الذاتية التى أحسن التعبير عنها .

[٤] شعر الآثار (١) :

(ا) للبارودى يصف الأهرام :

سل الجيزة الفيحاء عن هرمى مصر لعلك تدرى بعض مالم تكن تدرى

بناءان ردا صولة الدهر عنهما ومن عجب أن يغلبا صولة الدهر

أقاما على رغم الخطوب ليشهدا لبانيهما بين البرية بالفجر

فكم أمم فى الأرض بادت وأعصر خلت وهما أعجوبة العين والفكر

التعليق :

تعرض عليك هذه الأبيات دليلا آخر على وثبة الشعر نحو الرقى : فألفاظه جيدة الاختيار ، تدل على سعة العلم باللغة ، وأساليبه غاية فى الإحكام والقوة ، وبينها جميعاً تماسك وارتباط .

وقد مال فيها البارودى إلى جانب الفخر والاعتزاز ، أكثر مما مال إلى الوصف : فيقول فى لغة خطابية : سل الجيزة عن الهرمين لتعرف من أمرهما ما غاب عنك ، ثم يجيب فى إيجاز وتصوير سريع : لقد غلبا الدهر وردا صولته ، وإنه لعجيب حقاً أن يظفر بالدهر ، ثم أكد هذا وعلله تعليلا قوامه الاعتزاز بالآباء إذ قال إنهما ما بقيا إلا ليشهدا للفراعنة بالعظمة ، وهنا يُذكر بزوال الأمم والعصور وببقائهما أعجوبة للعين إذ لم تقع على ما يماثلهما ضخامة ، وللفكر إذ حار فى عجيب صنعهما ، وقهرهما لأحداث الزمان : وقد كان للشعور الوطنى المتوهج أثر كبير فى توجيه الشعراء إلى القول فى هذا الموضوع إشادة بالمجد القديم ، وحفزاً للهمم ، وإحياء للآمال التى حاول المستعمر أن يقضى عليها بنشر دواعى اليأس والاستسلام .

(ب) لشوقى فى أبى الهول :

أبا الهول طال عليك العُصُر وبُلغت فى الأرض أقصى العُمُر

---

(١) وهو لون من شعر الوصف ، ولكن لحداثة تناوله ولكثرة القول فيه استحق أن يجعل موضوعاً مستقلا تميز به العصر الحديث .

فيالدةَ الدهر، لا الدهرُ شب ولا أنت جاوزت حد الصغر
أبا الهول ماذا وراء البقـــاء إذا ما تطاول غير الضجـــر
عجبت للقمان فى حـــرصه على لُبَدٍ والنســور الأخر
وشكوى لبيد لطول الحـــياة ولو لم تطل لتشـــكى القصر
ولو وُجِدت فيك يابن الصّفاةِ لحقْتَ بصانعك المقتـــدر
فإن الحياة تَـفُـل الحديد إذا لبسته وتُبلى الحجـــر

التعليق :

شوقى أكبر شعرائنا حديثاً عن الآثار، وتناولا لها فى شعره ، وهو حينا يصفها كما يراها (كقصيدته فى قصر أنس الوجود) وحيناً يتخذها وسيلة للزهو بمصر القديمة ، ليحرك فينا نازعة الجهاد والطموح لنسترد ما كان ، وحيناً آخر يتخذها لساناً يردد أحداث التاريخ ويقص عبر الأيام .

وتنويع القول فى الآثار على هذا النحو يدلك على مقدار ماوصل إليه الشعر على يد شوقى من نهضة ، خرجت به عن الموضوعات المألوفة والنطاق المحدود إلى موضوعات ذات جدة وسعة .

وهو فى هذه الأبيات يصف أبا الهول بطول العمر فهو قرين الدهر ، ولكنه على رغم عمره المتطاول لم يجاوز مرحلة الطفولة . وسرعان مايترك الشاعر ذلك إلى منهج ، لمسفى ليدل على أن العمر الطويل لا يورث غير الضجر لفقدان الأقران ، وغير الضعف والسقام والحاجة . وهو من أجل ذلك يعجب لحرص لقمان على أن يهب الله عمراً طويلا . ثم يلتفت التفاتة ذهنية إلى لبيد الشاعر الذى صرح بأنه سئم الحياة وطولها فيقول إن لبيداً لم يسأم إلا لطولها ، ولو كان قد منح عمراً قصيراً لتشكى قصره وتمنى أن يُمَدَّ له فيه. ثم يمضى الشاعر فى هذا الجو الفلسفى الذى أثارته ثقافته وسعة إلمامه ، فيقول إن الحياة هى سر العدم ، فلو دبت فى أبى الهول للحِقَ بصانعه القدير ، ولو خالطت الحديد والحجر لفلّتهما وأبلتهما .

وبهذا ترى الوصف لم تصبح تحديداً للأبعاد، وتصويراً للملامح على مثال ما تصنع آلة التصوير، ولكنه عكس للموصوف كما أثر فى وجدان الشاعر وعاطفته.

[٥] الشعر القصصى التاريخى:

(١) للشيخ محمد عبد المطلب (من علويته):

وسائل يوم خيبر عن علىٍّ	تجد فيها مآثره جساما
إذا الرايات فى جهد عليها	تعاصى الفتحُ وانبهم انبهاما
وقامت لليهود بها جنود	رزمن على معاقلها رزاما
فأقبل بالعقاب على خميس	يدق به المراجم والرجاما

التعليق:

العلوية قصيدة ذات موضوع واحد تزيد على الثلاثمائة بيت. ألقاها الشاعر فى حفل أدبى جامع أقيم بالجامعة سنة ١٩١٩ وقد تناول فيها المواقف الجليلة فى حياة الإمام على منذ أسلم حتى اغتيل.. وألم فيها بحروبه ومراحل الخلاف بينه وبين معاوية.

والشعر التاريخى القصصى لم يكن معروفاً من قبل إلا على شكل علمى جاف فى المنظومات التاريخية. ولكنه بهذه الصورة القائمة على التحليل والمستفيدة من عبر التاريخ والممتزجة بعاطفة الشاعر، يعد فناً جديداً وتطوراً فى الشعر العربى.

وفارس هذا الميدان شوقى بله فى الرسول الكريم وفى الأحداث الكبرى قصائد، وله ديوان قصص تاريخى عنوانه دول العرب وملوك الإسلام ولحافظ من هذا الفن (العمرية)، ولمطران (ملحمة نيرون)، ولاحمد محرم (ملاحم إسلامية طويلة)

وأنت ترى أن الشيخ عبد المطلب قد جرى فى الشعر على ما ألفه من إيثار الألفاظ والصيغ الغريبة لنزعته البدوية، فالشعر عنده معرض فصاحة

ولغة . وقد كان للنزعة البدوية فى الشعر مدرسة منها عبد المطلب ، والسيد محمد توفيق البكرى والشيخ حمزه فتح الله ، والسيد القاياتى . ولكنها — ككل بعيد عن ذوق العصر ومألوف الطبع — لم تلبث أن قضت نحبها .

(ب) لخليل مطران من قصيدته « نيرون » :

ساس نيرون برفقٍ قومه	مستهلا عهده بالخير دثرا[1]
مستشيراً فيهم الحذْر إلى	أن بلا القوم فما راجعَ حذرا
ضارباً فيهم بكف مرة	باسطاً كفيه بالإحسان مَرّا
لان حتى وَجدَ اللينَ بهم	جفا ثم عتا ثم اقمطرا[2]
وانتحى يرهقهم[3] ختراً فما	عاقلٌ فى معقل يأمن خترا

التعليق :

هذه الأبيات جزء من ملحمة تاريخية طويلة أنشأها مطران فى موضوع هو تاريخ نيرون — والاتجاه بالقصيدة إلى موضوع واحد من خصائص الشعر فى العصر الحديث ، وقد ازد مطران بتناول هذا الموضوع أن يدل على أن القافية فى الشعر العربى لاتحول دون الإطالة ، وذلك لغنى اللغة العربية ، وسعة معجمها .

وقد ضمن القصيدة كثيراً من الأفكار السياسية والاجتماعية ، مما يدل على أن الملاحم التاريخية ليست سرداً للتاريخ فحسب ، ولكنها انفعال بأحداث التاريخ وتسجيل للعبر والعظات .

والأبيات تشير إلى ما أصاب نيرون من تبدل فى السيرة والسبب الذى سهل له هذا الانقلاب . لقد كان عادلا واستهل عهده بخير كثير ، وتمسك بالحذر واحتراس فى سياسة المحكومين ، وخلط الشدة باللين ، ثم تغير لما وجد فيهم ملاينة واستنامة فاشتد وظلم حتى عاش العقلاء مفزعين لا يأمنون بطشه ولو كانوا فى معاقل منيعة .

(١) دثراً : كثيراً (٢) اقمطرا : اشتد (٣) ختراً : غدراً

والشاعر يلقى على الشعب تبعة فساد الحكام وقد أوضح هذه الفكرة السياسية الاجتماعية إيضاحاً تاماً . وأنت ترى دقة الشاعر فى التصوير باستخدامه الألفاظ المترقية فى معانيها ، وتتمثله فى قوله : جفا ، ثم عتا ، ثم اقمطرا ، فالجفاء أولا ثم العتو والظلم ثانياً ، ثم التمادى فيه وقد دل على ذلك بكلمة اقمطر ، وهى لطبيعة تكوينها وجرسها تدل على المبالغة فى الظلم والجور

وقد كانت إطالة القصيدة إلى نحو ثلثمائة وعشرين بيتاً سبباً فى أن تجىء بعض كلمات القافية غريبة لم يؤثرها الشاعر لغرابتها وإنما أراد استيفاء القصيدة فاضطر إلى استعمالها .

ولهذا عدل كثير من الشعراء المحدثين عن القافية الموحدة إلى نظام آخر يوفر لهم الحرية ويعينهم على الإطالة التى تمكنهم من أن يوفوا الموضوع حقه

[٦] الشعر المسرحى :

من « مصرع كليوباترة » لشوقى :

[الجماهير خارج القصر تهتف وتنشد نشيد النصر فى « أكتيوم » وكليوباترة مع وصيفتها شرميون وحاشيتها فى مكتبة القصر وقد عجبت لهذا الهتاف الذى لم يصادف موضعاً]

الملكة (عابسة) :

كاهنَ المُلْكِ . سادتى . هل سمعتم   رَنَّةَ الصوتِ فى جوانب قَصْرِى ؟

أنوبيس (أمين المكتبة) : هم رعايا مليكتى

الملكة :   ليت شِعرى   ألخيرِ تجَمَّعُوا أم لشَرٍّ ؟

شرميون (الوصيفة) :

الجماهيرُ يامليكةُ بالشَّطِّ   يموجونَ فى حبورٍ وبشر

(٤) معركة بحرية انضم فيها الأسطول المصرى إلى أنطونيو فى الحرب التى دارت بينه وبين أكتافيوس ثم لم يلبث أن انسحب من المعركة سنة ٣٠ ق . م

سرهم ما لقيتِ في أكتيوم   من ظهور على العداة ونصر
الملكة : يالأفك الرجال ! ماذا أذاعوا   كذبٌ ماروَوْا ، صُراحٌ لعمرى
أيَّ نصر لقيتُ حتى أقاموا   ألسُنَ الناس في مديحي وشكرى
ظَفَرٌ في فم الأمانيّ حلو   ليت منه لنا قُلامة ظُفْر
وغداً يعـــلم الحقيقة قومى   ليس شيء على الشعوب بسر

التعليق :

هذا جزء من أحد مشاهد كليوباترة لم يرسله الشاعر حواراً لفظياً فحسب ، وإنما عالج به عدداً من خواطر النفوس ، فالحكام يحذرون تجمع الجماهير ، ويتمنون الظفر ويتطلعون إليه ، والأعداء يحاربون الحكام بنشر الإشاعات وترويج الأكاذيب ، والمخلصون من بطانة الحكام يسارعون فيملئون الجو حديثاً عن انتصارات مختلفة للقضاء على دسائس العدا ، ولقد فعلت شرميون ذلك فأثار وفاؤها إعجاب الملكة فمضت تتحدث عن الخادم المخلص ، وقيمة الإخلاص .

والأسلوب رائع ، وقد دانت فيه للشاعر تعبيرات غاية في الروعة والجمال ، واتته من غير تكلف أنواع من الزينة : تأمل سهولة التعبير وحلاوة التصوير في قوله : ظفر في فم الأماني حلو . . والجناس الذى جاء في وقته ومكانه « ليت منه لنا قلامة ظفر » .

ولم تقف عبقرية شوقى عند حد هذه البراعة في التعبير والتصوير ، بل تعدتهما إلى أنه خالق هذا الفن في الشعر العربي الحديث وله فيه مسرحيات كثيرة مثلت فظفرت بالإعجاب والتقدير . وقد حاكاه عدد من الشعراء ولكنهم تخلفوا . . . ورافع راية هذا الفن الآن الأستاذ عزيز أباظة .

(٧) الشعر العاطفى الوجدانى :

لإبراهيم ناجى[1] بعنوان عاصفة روح

أينَ شَطُّ الرجاءْ	ياعُبابَ الهمومْ
لَيْلَتى أنْواءْ	ونهارى غيوم
أعْولى يا جراحْ	أسمعى الدَّيَّانْ
لا يهمُّ الرياح	زَوْرَقٌ غضبان
الْبِلَى والثقوبْ	في صميمِ الشِّرَاع
والضَّنَى والشُّحُوبْ	وخيالُ الوداع

التعليق :

الشاعر كثير الهموم : يحس لياليه عاصفة ، وأيامه غائمة ، وأحزانه موجاً متدافقاً ، ويصور نفسه ملاَّحاً قد ركب زورقه وأخذ يدفعه فى عباب الهموم بين هاتيك العواصف والغيوم ، وقد بلى شراعه وتخرق ، فعجز الملاَّح وتهادى الزورق الغضبان فمضى يصرخ أين شط الرجاء ، ولكن الحياة سخرت منه ، وعلت قهقهة الرعود . . . وهنا أدرك فى مرارة وحسرة أن الصبا لن يراجعه وأن الهوى لن يعاوده .

فالقصيدة إذن تعبير عن حبه الذى تداعى ، وهو تعبير لم يحمل إلينا فكرة الشاعر بطريق مباشر ، بل رمز إليها بهذه الصورة الواسعة المؤلفة من العباب والأنوار والغيوم ، والرياح المعولة ، والزورق الغضبان ، والشراع المثقوب ، والحياة الساخرة ، والرعود المقهقهة .

(١) طبيب أديب عالج الشعر يافعا ، ثم أصبح الشعر كل همه ، وأكثر شعره فى التغنى بحبه ومنه هذه القصيدة وقد كان إتقانه اللغتين الإنجليزية والفرنسية معواناً له على أن يستفيد من آدابهما .

وهذه الصورة الرمزية الواسعة لم يعرفها القدماء إذ كانوا يعبرون مباشرة عن معانيهم ، فهي من آثار الأدب الغربي . ثم إن من القدماء من وقفوا عند حد الإيجاز والإجمال في تصوير عواطفهم ، ولم يتعمقوا في رسمها تعمق ناجي وأمثاله من الشعراء المحدثين والذين أحسوا احتدام عواطفهم وحاجتها إلى تحليل يَسْــبُر أغوارها .

وإلى جانب الرمزية ، والتعمق في تحليل العواطف نجد تجديداً يتناول الشكل : فقد أنشأ للقصيدة وزناً جديداً ، وقسمها بيتين بيتين وجعل للشطرين الأولين من كل قطعة قافية وللأخيرين قافية أخرى .

وقد ارتضى هذا الشكل في أكثر مانظم . وهو أشبه بنظام الرباعيات في الشعر القديم .

الشعر في العصر الحديث

مر الشعر في فترات أربع مختلفة :ـــ

الفترة الأولى : وهي امتداد للعصر التركي : فالأغراض لا جديد فيها بل زادت ضعفاً وانحطاطاً ، وكثر استعمال الشعر في التأريخ تؤرخ به الوفيات أو القران أو الختان ، ولوحظ بكثرة على المقابر والمنشآت .

ومنه قول الدرويش يؤرخ لسنة ١٢٤٤ :

خير البرايا أحمدٌ سما له   بيتُ رقى في المعالي مَوردُ
أنق نبي نور طهر عاصم   هو خير أيّ الرسل بل هو أحمد

والبيتان ألفاظ مرصوصة وهيكل لا روح فيه ولم تظهر الروح القومية إلا كوميض النار عند صالح مجدي أحد شعراء ذلك العصر ولم تجد من يشعلها نظراً لروح العصر وسيطرة التركية على كل شيء . وزاد كلف الشعراء بالزخارف اللفظية والمعنوية يتصيدها الشعراء أو يلفقونها ومال الشعر إلى الرقة والسهولة لدرجة تقربه من العامية . أما المعاني فقد اختفت تحت ستار كثيف من المحسنات الثقيلة السمجة ، ومع ذلك فهي تافهة فالأفكار ضحلة .

والخيال يكاد يكون معدوماً . وساعد على ذلك الضعف . (١) ضآلة محصول الشعراء من فقه اللغة . (٢) اهتمام النهضة بالناحية العلمية لتقوية الجيش وإهمال الناحية الأدبية . فضلا عن أنها فى أول الطريق . (٣) اعتقاد الناس أن الشعر أصبح يغض من شأن صاحبه ويصرفه عن الجد فى الأمور

ومن أهم شعراء تلك الفترة : السيد الخشاب . واشتهر بتغزله فى الفرنسيات والشيخ شهاب الدين الذى عرف بشعره الصوفى . والسيد الدرويش أستاذ الصنعة اللفظية فى تلك الفترة . وصالح مجدى الذى مال إلى الروح الوطنى وحاول أن ينشره .

ومن شعر الخشاب قوله :

ولعت بسود أجفان الملاح وهن أحد من بيض الصفاح
وشاقتك القدود : ألست تدرى كمون الحتف فى لدن الرماح ؟

والمعانى فى البيتين مألوفة ، ولعنايته بالصناعة جعل الأجفان سودا ليقابلها بالسيوف البيض ، وهو يريد من الأجفان العيون .

الفترة الثانية : جاءت هذه الفترة وقد بدأ الأدب ينهض ويظهر لون جديد من الشعراء وقد شاهدنا فيها أنواعاً أربعة من الشعراء :

الأول : مازال يسير فى طريق الضعف والانحلال يتصيد البديع والمحسنات اللفظية ولو كان ذلك على حساب الإخلال بالإعراب أو تصريف الكلمة (السيد على أبو النصر ـ الشيخ على الليثى) .

الثانى : يحاول الظهور وإثبات شخصيته ويجاهد فى ذلك محاولا تقليد القدماء فى العبارات والأساليب والأخيلة فتختفى هذه الشخصية تحت ستار هذا التقليد الضعيف الهزيل (محمود صفوت الساعاتى) الذى يقول فى العتاب:

حتى متى وإلى كم طول وعدكم أما له أجل قبل انقضا أجلى ؟
إنى أحب بأنى اليوم أمدحكم والمدح خير لكم لو تعلمون ولى

وهو — على مافيه من إطالة بالتكرار وجناس سقيم ، وقلق وابتذال فى تكوين البيت الثانى تافه المعنى عار من جمال التصوير .

الثالث : يحاول أيضاً إظهار شخصيته ولكنها تختفى تحت سلطان الصنعة والزخارف الذى يجتهد فى التخلص منه . ولكن هذا السلطان يغلبه ، ومع ذلك فقد نجح فى محاولته إلى حد ما (عبد الله فكرى) . وإليك من شعره فى غزله قوله :

كتبت ولولا دمع عينى سائل — تلظى جوابى من تلهب أنفاسى
وعندى من الأشواق مالم يبح به — لسان يراع فى مسامع قرطاس

فالصنعة بالبيتين لم تفسد نسجهما ، ولم تقف دون انسياب الخيال إليهما

الرابع : من ذوى الشخصيات القوية الغلابة التى استطاعت أن تخضع سلطان التقليد فسار طوع أمرها وتصدع سلطان الصنعة . فشقت طريقها بين هذه الاتجاهات المتباينة المتنافرة . وحاكت النماذج الرفيعة من الأدب القديم إما بالمعارضة أو بالنسج على منوالها . وساعدها على ذلك ماجمعته من ذخيرة لغوية عظيمة وإحاطة بالمعانى القديمة وإلمام غير يسير بالأفكار الحديثة (محمود سامى البارودى) . وقد مر بك من شعره أكثر من نموذج

ويلاحظ على الشعر فى هذه الفترة : (١) تقدم نحو التخلص من البديع وإن ظل بعض الشعراء محافظين عليه . (٢) اتسعت بعض الأغراض كباب الوصف الذى بدأ يحتل مكاناً عالياً عند الشعراء . (٣) لم تتغير المعانى

٤ — ازدياد الثروة اللغوية التى انبعثت من المعجمات وكتب الأدب القديمة .

٥ — تعتبر هذه الفترة مرحلة انتقال إلى طور الرقى الثالث ، وقد كثر فيه الشعراء من مصريين وسوريين .

وساعد على هذا الرقى النوعى :

١ — اتساع التعليم .

٢ — انتشار الصحافة والمطابع ، وإحياء كتب الأدب القديمة ، ونشر الكتب الحديثة .

٣ — إقبال الشعراء على دواوين الفحول من الشعراء السابقين يتفهمونها

أو يحفظون ويعارضون ويقلدون .

٤ — إنشاء دور الكتب ، فقد يسرت للأدباء طريق الاطلاع على التراث القديم .

٥ — اتصال الأدباء السوريين بالمصريين ورحلة عدد كبير من أدباء الشام إلى مصر كما سبق .

٦ — أجزل إسماعيل العطاء للشعراء الذين يمدحونه ويتملقونه ويسجلون مفاخره — إن كانت له مفاخر — نشاهد ذلك فى شعرهم الذى كانت تنشره الوقائع المصرية ، ومن طلبة المدارس أيضاً فى المناسبات المختلفة.

٧ — بدأ الشعر يأخذ مكانه من النفوس كلون من المتعة الفنية الجميلة .

الفترة الثالثة : فترة رقى الشعر ونهوضه للأسباب الآتية :

١ — بدأت النهضة فى الفترة السابقة تتجه إلى الأدب ، وانتشرت الحركة التعليمية وزادت المدارس العامة والمدارس العالية . وقد أتت كل هذه العوامل ثمارها فى الفترة الثالثة بعد أن نضجت .

٢ — لمع نجم البارودى واكتمل نضجه فى الشعر . فظفر به طفرة قوية إما عن طريق مباشر بما كان ينشده من قصائده ذات المعانى التقليدية أو غير مباشر . بما كان ينشره فى مختاراته من الشعر القديم .

٣ — الثورة العرابية التى جاءت نتيجة لهذه الثورة الفكرية والشعور بالكرامة والعزة والمطالبة بالحقوق القومية . ولم يقض فشل هذه الثورة على الأدب . بل زاده قوة . فقد ظل الشعر متأججاً . وكان مثل الأدباء والمفكرين كمثل الذى غلب فى صراع فأخذ يتأهب ويستعد للنزال مرة أخرى ، فقوى الشعر وأصبح الشعراء يرسلونه ناراً تحرق بشواظها المحتل ويهتدى بنورها الوطنى .

٤ — ظهور طبقة من الشعراء والنقاد أخذت تدعو إلى التخلص من البديع والاستفادة من الأفكار والمعانى القديمة والأدب الغربى منهم اسماعيل صبرى شيخ الشعراء الذى جعل الشعر حديثاً عن خوالجه وانطباعاته بالحياة وحفنى ناصف .

٥ — شدة اتصال الأدب العربى بالأدب الغربى عن طريق البعثات التى عادت ومعها آثار وطرق جديدة فى التفكير والتعبير .

٦ — مال الكثير إلى الشعر إذ وجدوا فيه الواحة التى يستريحون إليها من عناء العمل ولغوب الحياة ، ورأوا فيه تمثال الحبيب الذى هجرو نأى والأغنية الوطنية التى تردد مجد البلاد ، والأنشودة التى تعبر عن أمل الوطن واللسان الذى يترجم عن آمال الشعب وآلامه .

ويلاحظ فى هذه الفترة ما يلى :

١ — تخفف الشعراء من الإمعان فى طلب الصناعة والجهد فى اصطياد البـــديع .

٢ — انطلق الفكر من بعض قيوده باتساع الخيال .

٣ — بدأ الشعر السياسى يظهر ويتخذ له كياناً ، واتسع باب الوصف فشمل ناحية جديدة هى وصف الآثار (البارودى — اسماعيل صبرى) كما زاد وصف الطبيعة واهتم هذا اللون بالصور والخيال .. ومال الهجاء إلى الهجاء الاجتماعى . يهجو الشاعر ما ينتشر بين الناس من النفـاق والملق ، وينعى على قومه انتشار الجشع والحرص والطمع بينهم .

٤ — بدأت العناية بالألفاظ مع العناية بالمعنى تأخذ طريقها إلى نفوس عدد من الشعراء كان لهم الفضل فى نهضة الشعر عامة .

ومن شعراء تلك الفترة غير من ذكرنا (محمد عثمان جلال — شوقى)

الفترة الرابعة : فى القرن العشرين :

امتدت نهضة الشعر وتابع سيره فى طريق التقدم والرقى حتى وصل درجة عالية فى أوائل هذه الفترة نتيجة لتفاعل عوامل الرقى والنهوض فى القرن الماضى . ولظهور شاعرين عظيمين هما (شوقى وحافظ) يعتبران من أكبر الدعاة للنهوض بالشعر وتوجيه الأذهان إلى ما فى الشعر من متعة فنية لا نظير لها فى فنون الأدب الأخرى ؛ ولإتقان كثير من الأدباء للغات الاجنبية واطلاعهم على آدابها فى مصادرها بعد أن كانوا يقرؤونها

مترجمة ، وبذلك اتسع نطاق ما استفاده من أفكار وصور ومناهج ، وكان من أثر ذلك ظهور عدد ضخم من الشعراء فى مصر والبلاد العربية نعد منهم على سبيل المثال (محمد عبد المطلب — الجارم — أحمد محرم — المازنى — العقاد — على محمود طه — عبد الرحمن شكرى — الدكتور ابراهيم ناجى — خليل مطران (مصر) — الفيتورى — التيجانى بشير (السودان) — بشارة الخورى المعروف بالأخطل الصغير — شبلى ملاط (لبنان) — الزهاوى — الرصافى — الشبيبى — (العراق) — أبو القاسم الشابى (تونس) ومن شعراء المهجر: جبران خليل جبران — إيليا أبو ماضى — ميخائيل نعيمة.

ويلاحظ أن الشعر اتسم فى هذا القرن بطابع مغاير لما كان عليه فى القرن السابق فقد :

١ — اكتملت له كل أسباب الكمال . فالكلمة العربية عبدها وسهل طريقها البارودى ، وجاء عبد المطلب فغذاها بديباجة ومسحه تكاد تكون جاهلية ثم ظهر الجارم فأحالها إلى لون جديد متأثر بالثقافة الغربية ، وذلك بعد أن تناولها شوقى فهذبها وزودها بالمعانى والأخيلة الاجنبية .

٢ — اتجه الشعر اتجاهاً قوياً نحو الواقعية فقد تجمعت المشكلات التى كانت فردية قبل ذلك وأثرت فى طبقات الشعب وأصبحت مشكلات عامة .

٣ — ظهرت القومية المصرية واضحة . وكان للاحتلال أثره فى تغنى الشعراء بالأمجاد القديمة وترديد معانى العزة القومية والتنفير من الظلم والاستعباد ، والحفز للاستقلال والسيادة ، ثم فى الإشادة بأمجاد العروبة ووحدتها حين نما الشعور بالحاجة إليها .

٤ — تعقد الحياة وجهاد الناس ليوفروا لأنفسهم بعض ماتفرضه الحياة الجديدة من وسائل المعيشة الكريمة . طبع الشعر بطابع اجتماعى نفسى .

خصائص الشعر فى العصر الحديث

الموضوعات	الألفاظ والأساليب	المعانى والأخيلة	القوالب والأشكال

أولا : فى الموضوعات :

ذكرنا أنها كانت تافهة فى الفترة الأولى فلم تتعد الأغراض التقليدية التى لا تتصل بعاطفة صادقة . من مدح للكسب أو التجمل ، وغزل متكلف ، وعتاب ، ورثاء .

ومنذ الفترة الرابعة أو قبلها بقليل هجرت بعض الموضوعات ، وازدهرت موضوعات كان تناولها من قبل محدوداً ، وجدت موضوعات أخرى وإليك التفصيل .

١ — الأغراض التى هجرت : (١) المدح ، ظهر أيام إسماعيل وتوفيق ، وتوسع فيه الشعراء من أمثال الشيخين على الليثى وأبى النصر - ثم هجر لأنه لا يناسب طبيعة العصر الذى أصبح فيه للفرد كيانه المستقل وشخصيته المتحررة ، وحل محله شعر التهنئة والإشادة بعظماء الأمة تخليداً لأعمالهم وحفزا للهمم على الاقتداء بهم - وقد عالجه كل من إسماعيل صبرى وحافظ وشوقى فى صدر شبابهم ثم عدلوا - بعد أن اكتملت شخصياتهم الأدبية إلى منهج الإشادة بالرجال والأعمال (٢) الهجاء : ترفع عنه الشعر الحديث لأن الذوق العام لم يعد يستسيغه وحل محله الهجاء الاجتماعى - كما سبق - والمداعبات الخفيفة الطريفة بين الأدباء . (٣) الفخر بالنفس ، وقد أكثر فيه البارودى ، وكانت مواهبه وشجاعته وعراقة أصله ، واطراد جاهه معواناً له على ذلك - ولكن هـذا المنهج الشخصى قد عدل عنه وحل محله الافتخار بالأمة وتاريخها وعزها - وبهذا يمتزج الفخر بالحماسة للوطن والعروبة .

ب — الأغراض التى ازدهرت : (١) الوصف : وهو غرض قديم شاع فى جميع العصور ، وتردد فى أطوار من القوة والضعف ، فلما جاء العصر الحديث ازدهر واتسع وشمل كل شىء فى الحياة وتعدد فاهتم بتناول مظاهر الطبيعة والآثار القديمة والمخترعات الحديثة . وبعد أن كان قديماً يعالج عرضاً فى القصيدة أصبحت القصائد تقال فيه استقلالا (٢) الشعر الوجدانى أوشعر العواطف ، وقد استدعته طبيعة الغناء المصرى ، وماغلب على نفوس الشباب من مشاعر القلق والسخط ، هذا إلى انتشار الدراسات النفسية وعناية الآداب الأجنبية بهذا اللون ، فانطلق الشعراء يصورون خلجات نفوسهم ، وأكثرهم انتهج فى تصويره لعواطفه المنهج الرمزى كناجى فى قصيدته « عاصفة روح » وكالمازنى فى « ليلة وصباح ص ٢٢٥ وكعمز أبى ريشة الذى رمز إلى مطامحه التى لا تتحقق بنسر مهيض جائع التفت حوله بغاث الطير تنوشه وتصول عليه فانتفض لكرامته ومضى إلى وكره ليلقى أجله سعيداً بأن يحضره الموت وهو فى القمة لا على السفح .

[اقرأ قصيدة النسر ص ٢٥٢] .

(٣) الشعر التعليمى ، وهو لون قديم شاع فى العصر العباسى ثم ضعف ، وفى عصرنا الحديث أخذ يحتل مكانة مرموقة فقد أكثر الشعراء من نظم الحكايات والتمثيليات التى تخدم التعليم فى المرحلة الأولى ، وتطبع الناشئة على الفضائل الإنسانية والوطنية وتحبب إليهم دراسة الأدب وتذوقه [محمد عثمان جلال ـ شوقى ـ الهراوى ـ المحجوب ، محمد محمود رضوان] .

(٤) التاريخ : صاغ بعض الشعراء الأقدمين قصائد تاريخية كابن المعتز والبحترى وأحمد بن عبد ربه وابن هانىء . ولكن هذا اللون زال . ثم ظهر حديثاً على يد شوقى فى همزيته ، كبار الحوادث فى وادى النيل » ثم فى ديوانه « دول العرب وملوك الإسلام . ولحافظ العمرية فى تاريخ عمر ولمحمد عبد المطلب العلوية فى تاريخ على ابن أبى طالب .

(حـ) الموضوعات التى جدَّت :

١ — وصف المخترعات الحديثة والآثار .

٢ — الشعر الوطنى والسياسى ، وقد بدأ هزيلا على يد صالح مجدى ، ثم طرقه الطهطاوى بنشيده الوطنى الذى منه :

فهيا يابنى الأوطان هيا فوقتُ فخاركم لكمُ تهيا
أقيموا الراية العظمى علياً وشنوا غارة الهيجا سويا

ثم نظمه قوياً إسماعيل صبرى ، وسار على هديه شوقى وحافظ فبلغا الغاية ، وحذا الشعراء حذوهم ، وتغنوا فيه جميعاً بالحرية والاستقلال ، ثم بالعروبة ، ودعوا إلى الجهاد لتحقيق أمانى البلاد القومية ، ووصفوا فيه المستعمرين بما ينفر منهم مستغلين ما تمر به قضية البلاد من أحداث .

٣ — الشعر الاجتماعى ، ويتناول المشكلات الاجتماعية متحدثاً عن أخطارها وواصفاً دواءها . ومن أهم شعرائه حافظ وشوقى ومطران والزهاوى .

٤ — شعر المسرحيات : بدأه الشيخ خليل اليازجى فى روايته «المروءة والوفاء» وقد ذكر جورجى زيدان أنه شاهدها تمثل فى بيروت سنة ١٨٧٨ ثم جاء شوقى فنظم رواياته (مصرع كليوباترة — مجنون ليلى — قمبيز وغيرها) وتبعه كثيرون منهم عزيز أباظة فأخرج (قيس ولبنى — العباسة غروب الأندلس — شهريار) .

ويأخذ على هذه المسرحيات كلها أنها تركت معالجة المشكلات المعاصرة وتصوير شخصيات المجتمع الحديث ، وعمدت إلى أحداث تاريخية سابقة معروفة اتخذتها موضوعاً لها .

ثانياً : فى الأساليب والألفاظ :

١ — جاد لفظ الشعر وصقل فى الفترتين الثالثة والرابعة تأثراً بالآداب القديمة والأجنبية ، ونتيجة للدراسة الأدبية بالمدارس .

٢ — اختلفت أساليب الشعراء : فشاهدنا من يقلد الأسلوب العباسى

كالبارودى ، ومن يقلد الأساليب البدوية كعبد المطلب والبكرى والقاياتى ، ومن مال إلى الأساليب الافرنجية معتدياً على سلامة اللغة وصحة الوزن بدعوى إيثار المعنى عليهما كأكثر شعراء المهجر والدكتور أبى شادى — وهناك من اتخذ لنفسه من كل هذه الأساليب أسلوباً خاصاً كشوقى وحافظ .

٣ — أصبح الأسلوب سائغ العبارة قوى الأثر فى النفس وبخاصة أساليب الشعر القومى والاجتماعى .

٤ — مال الشعراء إلى العرض التأثيرى لا الإخبارى : فهم يتركون الأشخاص والأطوار والهياكل والآثار تتحدث عن نفسها ويشيعون الحركة فى كل جانب من جوانب هذا التعبير الجديد .

٥ — الألفاظ تناسب الأغراض وتختلف باختلاف الشعراء ، فعبد المطلب يميل إلى اللفظ الفحل ، وشوقى يميل إلى اللفظ الرقيق العذب ، والبارودى يجمع بين هذا وذاك .

٦ — القوافى تراها سهلة محكمة عمد الشعراء فيها إلى التناسب بينها وبين الأبيات ؛ وغالى بعضهم فاشتق من سياق الأبيات جملا حكمية تختم بها (حافظ وشوقى كما سبق) وقد تحلل المجددون من وحدة القافية والوزن ومنهم من أهملها

ثالثاً : فى معانيه وأخيلته :

(١) اتجه كثير من الشعراء إلى أمجاد المصريين القدماء يستلهمونها معانيهم ولا سيما فى الشعر الوطنى ، وشعر الآثار . (٢) تأثروا فيها بالآداب العربية وبالآداب الأجنبية . (٣) اعتمدوا فى ترتيبها على المنطق القريب والربط بينها فأصبحت القصيدة وحدة واحدة (٤) عمد كثير من الشعراء المثقفين إلى توليد المعانى توليداً عقلياً واسعاً متأثرين فى ذلك بالثقافة الأجنبية كمطران والعقاد والمازنى والزهاوى (٤) ظهر مذهب الشعر الرمزى وفيه لا يعبر الشاعر عن معانيه وعواطفه تعبيراً مباشراً بل يرمز إلى ما يريد بصورة قد تتسع وتتعمق إلى درجة كبيرة من الغموض — وكثر هذا فى

الشعر الوجدانى الذى أخذ يتحدث عن خلجات النفوس من خلال المشاهد الطبيعية . وقد حمل النقاد على هذا اللون من المعانى ومع ذلك فقد زاد الشعراء الرمزيون وشقوا طريقهم إلى ميادين الإنتاج (٥) روعيت وحدة الموضوع فى القصيدة فأصبحت عند كثير من الشعراء لاتتناول إلا ناحية شعورية ومعنوية واحدة ولهذا سهل عليهم وضع عناوين لقصائدهم ومن هذا النوع : عاصفة فى روح ، قلب خافق لبشاره الخورى ، وكن جميلا لإيليا ، وأبو الهول لشوقى (٦) جاءت الصورة البيانية نابضة بالحياة والإيحاء بريئة من التعقيد والتكلف ، وسلم الإنتاج من ازدحامها فيه ازدحاماً يجنى على وضوح الفكرة ونشاط العاطفة .

قوالبه : أولا : القصيدة ذات الوزن الواحد والقافية الموحدة :

(وهى القالب الأصيل للشعر العربى منذ العصر الجاهلى) وقد بقيت كذلك فى العصر الحديث فى إنتاج كبار شعرائه « كشوقى وحافظ ومطران » ولم يعدل عنها الشعراء المجددون جملة ، فلكثير منهم انتاج يتضمنه نظام القصيدة الموحدة الوزن والقافية (أنظر قصيدة قلب خافق لبشارة الخورى والنسر لعمر أبى ريشة وكن جميلا لأبى ماضى) .

ثانياً : الرباعيات والموشحات :

وقد أفتن الشعراء فيهما ولم يقفوا عند الحدود التى وضعها الأندلسيون

فى الرباعيات يمضون فى القصيدة بيتين بيتين . ويجعلون لكل منهما قافية خاصة مع اتحاد الشطرين الأولين من كل بيتين فى قافية (أنظر قصيدة عاصفة روح لناجى) .

وفى الموشحات يجعلون المنظومة — غالباً — مؤلفة من أقفال وأدوار أما الأقفال بذوات قافية موحدة ، وأما الأدوار فذوات قواف متحررة .

ومنها هذه المنظومة لسيب عريضة من شعراء المهجر بعنوان مناجاة :

لاحت قصور الخيال	تعلو متـــون الغمام	قفل
يا أخت روحى تعالى	أطلت فيها المقـــام	
ياأخت روحى اسمعينى	من أوج تلك السماء	دور
قـــد كاد يقضى يقينى	هلا أجبت النـــداء	
أراك لا تعـرفينى (١)	أزال غنى البهـــاء	
أجل تغـــير كنهى	مذ جئت أرض الشقاء	
بدلت فيها جـــلالى	بحـــلة من عظام	قفل
يا أخت روحى تعالى	قـد أضجرتنى الأنـام	

ثالثاً : القصيدة المقسومة إلى مقطوعات ، ولكل مقطوعة قافية — وقد تجمع أكثر من وزن ، وقد تجىء بوزن كامل التفعيلات مرة ، وتجىء به مجزوءا (قصيراً) مرة أخرى .

فمن القصائد ذوات المقطوعات المتحررة فى القافية ، ولكنها من وزن واحد قصيدة « من أغانى الرعاة » للشابى . ومما يجمع أكثر من وزن (ويسمى مجمع البحور) قصيدة الشاعر والسلطان الجائر لإيليا ومنها :

أمر السلطان بالشاعر يوماً فأتـــاهُ
فى كساء حائل الصبغة واه جانبـاه } من بحر الخفيف
وحذاء أوشكت تفلتُ منه أخمصاه

ثم يقول :

القصر ينبى عن مهارة شـاعر	لبق ويخبر بعـــده عنـكا	من بحر
هو للألى يدرون كـنه جمـاله	فإذا مضوا فكأنـــه دكا	الكامل

ومثلها قصيدة « المواكب » لجبران خليل جبران ص ٢٣٠ بالكتاب المقرر

ومن القصائد التى تجمع وزناً واحداً يجىء مرة كاملا ، ومرة مجزوءا قول شكر الله الجُـر أحد شعراء المهجر بالبرازيل :

---

(١) خطأ نحوى جوابه « لاتعرفيننى » وأكثر شعراء المهجر لم يتحرج من ضعف العبارة كما يبدو هنا من الخطأ النحوى واللغوى والصرفى .

يرفرف حولك سرب الحسان   كسرب الحمام على ضفتيك
وكم تتلاقى أمانى الشباب   وأحلامهن على جانبيك

فيخفق صدر   ويحمر خد
ويرشف ثغر   ويهصر قد

وكل منظومة تحلل فيها الشعراء من القافية الموحدة سواء أكانت من الرباعيات أم الموشحات أم المقطوعات المتتابعة ، تسمى شعراً مرسلا .

ملحوظة : للشعراء المحدثين تصرف فى قسمة البيت ، فبدلا من أن يقسموا التفعيلات بالسوية بين الشطرين نجدهم يطيلون شطراً ويقصرون آخر ويتصرفون فى كتابته تصرفاً جديداً ومن ذلك قول نسيب عريضة فى قصيدته « نهاية شاعر »

الشطر الأول { كفنوه / وادفنوه / أسكنوه } ← ثلاث تفعيلات

الشطر الثانى { هوة اللحد العميق ← تفعيلتان

الشطر الأول { واذهبوا لا تندبوه فهو شعب ← ثلاث تفعيلات

الشطر الثانى { ميت ليس يفيق ← تفعيلتان

وقد يزيدون تفعيلة يكررونها مع البيت الذى تفتتح به المقطوعة والبيت الذى تختتم به وذلك كما فى قصيدة المازنى « ليلة وصباح »

افتتاح {
خيم الليل على صدر المشوق
يا صديقى
}

اختتام {
وبدت فى لجة الليل النجوم
ومضى يركض مقرور النسيم
وثنى الزهر على النور الغطاء
عم مساء
}

هات لى ! ماذا ، ألا هات الدواه
الدواه } افتتاح

أو لم يغف مع الليل الصدى
فليكن لى سمرا تحت الدجى
نتداعى فى حواشيه سواء
عم مساء } اختتام

رابعاً : الشعر المنثور ، وفيه أهملت القافية والوزن ، فزال عن الشعر أبرز خصائصه واختلط بالنثر إذ لم يبق بينهما فارق من وزن ولا قافية ، وقد عالجه جماعة من شعراء المهجر مستجيبين لنزعة مماثلة ظهرت فى الشعر الاوربى ولكن دعوتهم لم تصادف نجاحاً ، ومنه قول «فتاة الفرات» ترثى طفلا مات صغيراً

أنت للنفس سرورها
وأنت للعين نورها
لقد ذهب السرور ، وذهب النور ، فلا نفس ولا عين
كل شىء بعدك يسير
وكل رزء غير رزئك يهون

اتجاهات الشعراء فى العصر الحديث

استطاع البارودى أن يرد على الشعر الحديث جودة الديباجة ، ويعالج به — إلى جانب الموضوعات المأثورة — تصوير تجاربه الذاتية فى مواقف الحرب ، والوطنية ، ويردد فيه حنينه وتشوقه وشكواه وهو يعانى غصة النفى

وتلقاه من بعده إسماعيل صبرى فنزع به — بعد أن ترك مرحلة المحاكاة والتقليد — إلى أن يكون حديثاً صادقاً عن عواطفه وخلجات نفسه ، وعنى فيه بتخير اللفظ ودقة التأليف إذ كان حظه من الذوق الأدبى عظيما .

ومنذ تأثر الشعر الحديث بجهود هذين الشاعرين الكبيرين ظهرت على مسرحه اتجاهات ثلاثة متميزة نحمل الحديث عنها فيما يلى :

ا — مدرسة القديم ، وتحرص على فحولة اللفظ ولو مال إلى الإغراب فالشعر عندها لغة بدوية عربية ، تطرد فى أسلوب كأسلوب الجاهليين والمخضرمين ، وتعالج أغراضاً كالأغراض التى نظموا فيها .

ومن شعراء هذه المدرسة الشيخ محمد عبد المطلب والسيد توفيق البكرى والشيخ حمزه فتح الله . والسيد القاياتى . . . ومنهم من عالج بالشعر موضوعات حديثة بهذه اللغة البدوية التى لا تلائم العصر متجاهلا أن تطور اللغة يستدعى تطور الأدب معها حتى تفهمه الجماعة ... ويكون تعبيراً عن عواطفها ورغائبها ، وقد عرفت أن الشعر القصصى يتطلب سماحة الأسلوب ووضوح الألفاظ ولكن عبد المطلب فى علويته اتجه إلى الإغراب واستخدام أساليب وأخيلة قديمة ، لأن الشعر عنده مسألة فصاحة كفصاحة الإعراب ، وإليك وصفه للطائرة لترى فى أسلوبه صدى للأساليب القديمة التى كانت تصف الناقة :

إذا ما هزّمت فى الجو خلنا ... جبال النجم تنهدم انهداما
يسف على الثرى طوراً ، وطورا ... تراه على الذرا اشق الغماما

وقد غابت شمس هذه المدرسة الشعرية .

ب — مدرسة الجديد المتحفظ ، وتحرص على اختيار اللفظ ، ودقة الأسلوب وسلامته ، وتتجه بالشعر إلى معالجة الكثير من الموضوعات الجديدة المشتقة من طبيعة العصر وروحه والمتأثرة بالآداب الأجنبية وبمناهج النقد الحديثة — وإن كان لبعضهم شعر أملته المناسبات .

وأكثر ما ينظمونه يتخذ شكل القصيدة ذات الوزن الواحد والقافية الموحدة ، ويهتمون فيها بوحدة الموضوع .

ومن شعراء هذه المدرسة شوقى وحافظ ومطران والجارم والزهاوى وعلى محمود طه والرصافى والشبيبى وبشارة الخورى — على تفاوت بينهم فى التجديد . فمنهم من حلق ومنهم من توسط .

(حـ) مدرسة الجديد المتحرر ، وتحرص على المعنى ، ولا تهتم بما قد يعتور الأسلوب من قلق وضعف ، وما يتطرق إليه من أخطاء نحوية وصرفية ولغوية ، وتعالج بالشعر الموضوعات الوجدانية وتصور العواطف والخلجات بطريقة جديدة لم تكن معروفة من قبل ، إذ تعرض هذه الخلجات من خلال وصف مشاهد الطبيعة فتربط بينها وبين الإنسان برباط وثيق وتتجه به أيضاً إلى الحقائق الكونية والدقائق النفسية مما صبغه بصبغة الشك والحيرة والتمنى وقد تحلل شعراء هذه المدرسة من القافية الموحدة ، ومن الوزن الواحد أحياناً ، ونظموا أكثر شعرهم فى قصائد ذات مقطوعات . وعالجوا بالقصيدة موضوعاً واحداً عنونوا له .

وقد كثر فى إنتاجهم الشعر الرمزى الذى جروا فيه مجرى قصص كليلة ودمنة وخرافات إيسوب وحكايات لافونتين — ولإليا أبى ماضى قصيدته « الضفادع والنجوم » وهى رمز للثرثار الجاهل لقدر نفسه يتطاول على أقدار الكبار ، وقصيدة « الغدير الطموح » وهى رمز للطامع الذى لا يقفه عند حده إلا قوة أكبر منه ، ومنها :

قال الغدير لنفسه يا ليتنى نهر كبير
مثل الفرات العذب أو كالنيل ذى الفيض الغزير
تجرى السفائن مُوقرا ت فيه بالرزق الوفير
هيهات يرضى بالحقـــير من المنى إلا الحقير
وانساب نحو النهر لا يُلوِى على المرج النضير
حتى إذا ما جاءه غلب الهدير على الخرير

ولهم فى عنونة قصائدهم تعبيرات جديدة منها : الدمعة الخرساء ، جلاد الظلال ، الشاعر فى السماء ، حديث ساهد ، السكرة الخالدة ، مقابر الفجر .

ومن شعراء هذه المدرسة : عبد الرحمن شكرى ، والعقاد ، والمازنى ، وناجى ، وأبو شادى ، وشعراء المهجر — والثلاثة الأوائل على تجديدهم الواسع فى الموضوع والقالب الشعرى قد احتفلوا بالصياغة ولم يستهينوا باطراد الأسلوب .

حركة التجديد فى الشعر العربى

بدأت هذه الحركة فى مصر بعد اتصالها بالادب الغربى عن طريق البعثات التى أرسلت إلى فرنسا فى القرن الثامن عشر ثم إلى غيرها بعد ذلك وبعد تمثلها لهذا الادب وتأثرشعرائها به ، وانتفاعهم بمذاهب النقد الاجنبية

ولقد ظهرت كذلك فى الشام بفضل الإرساليات المسيحية التى سهلت دخول اللغات والآداب الاجنبية إلى هذا القطر ، وكأثر لمانقله المبعوثون من أهل تلك البلاد من ثقافة الغرب وأدبه .

ولما اشتد استبداد الاتراك بلبنان فركثير من اللبنانيين إلى مصر فراراً من الظلم وضيق العيش ، وجرياً وراء الكسب الادبى بها إذ رأوا حركة الادب والنهضة فيها تقوى بفضل السيد جمال الدين الافغانى ، ثم باطراد تقدم تيار الفكر .

ومنهم من فر إلى أمريكا . ولقد اشترك الفارون فى شئون البلاد التى نزحوا إليها ، وأسهموا فى نواحى النشاط فيها بجهود مشكورة ، وألفوا جمعيات أدبية ، وأنشئوا لهم صحافة عربية . وخاصة فى أمريكا . تهتم بشئونهم وأحوالهم ومشكلاتهم . وتنشر رائع أدبهم . واجتذب نجاح هؤلاء الفارين غيرهم فهاجروا مختارين .

وبهذا نتبين أن مواطن التجديد هى : مصر . والشام (سورية ولبنان) المهجر بأمريكا .

نواحى التجديد : لقد تناولنا الكثير منها فى الترجمة ، وفى الدرس السالف ، ونجملها هنا للتركيز:

أولا : فى الاغراض : (١) ظهر الشعر الوطنى والسياسى والاجتماعى.

(٢) وتنوع الوصف فشمل كل شىء فى الحياة ، واهتم بوصف مناظر الطبيعة ، فقد تفاعل الشعراء مع البيئة فانعكست على مخيلتهم صورها ، فأبدعوا رسمها ، وأصبحنا نقرأ القصيدة من هذا النوع فنحس أننا أمام لوحة فنية ترسم عواطف ومشاعر لاتقل روعة عن أبدع ماخلده الرسامون

(٣) كما اهتم الشعراء بوصف الآثار والمخترعات الحديثة .

(٤) وظهرت القصائد النفسية تحلل الخلجات وتتعقب مسائل الحياة والكون باحثة عن العلل والحقائق فى بعد عن جفاف الفلسفة وصرامة المنطق (قصيدة نيرون لمطران — أيهذا الشاكى لإيليا — المواكب لجبران — من أنت يا نفسى لميخائيل نعيمه)

(٥) واشتعل شعر الوجدانيات وقيلت فيه قصائد خاصة لاتعالج معه غرضاً آخر ، بل لقد جعل منه بعض الشعراء أكثر إنتاجهم كالدكتور ناجى وأحمد رامى ، وبشاره الخورى ، وعلى محمود طه .

ثانياً : فى الأساليب وبناء القصيدة :

١ — وجد نوع من الشعراء سيطر عليهم الاهتمام بالمعنى فأهملوا جانب اللفظ ولم يهتموا بالإعراب أو تصريف الكلمة إذا تعارض ذلك مع المعنى (كأكثر شعراء المهجر ، وأحمد زكى أبى شادى ، جبران خليل) .

٢ — وحدة الموضوع ، فبعد أن كانت القصيدة تتناول موضوعات أصبحت تعنى بموضوع واحد تدير حوله الأفكار على مثال مايصنع الأدب الغربى .

٣ — البساطة فى العبارة وهى أثر للبساطة فى أسلوب التفكير ، فلقد تبسط أكثر الشعراء فى تفكيرهم فسهلوا الأسلوب حتى ليكاد أسلوب بعضهم يقرب من أسلوب العامة مع الرقة والعذوبة .

٤ — الترابط بين أبيات القصيدة نتيجة لوحدة الموضوع ،

وثقافة الشعراء ، فلم يبق البيت وحدة مستقلة كما كان فى الشعر القديم .

ومن أجل وحدة الموضوع ، والترابط بين أبيات القصيدة سهل عليهم أن يعنونوا لقصائدهم بما يدل على فكرتها .

ثالثاً : الوزن والقافية :

١ — ثاروا على الأوزان والقوافى الموحدة فقد وجدوا أن التزامهما فى القصيده الواحدة يحول دون الإطالة مما أدى إلى عدم وجود الملاحم فى الشعر العربى . فتحرروا منهما ، ونظموا القيصدة على وزنين أو أكثر ، واختاروا لها قوافى متعددة (مرّ الحديث عن ذلك) ولقد اعتمدوا فى ذلك على الموشحات والأوزان التى اخترعها الأندلسيون ، وبهذا استطاعوا أن يطيلوا فى قصائدهم .

٢ — ظهر الشعر المرسل ، والشعر الذى يتعدد فيه الوزن «مجمع البحور» (وقد مر التمثيل لهما) .

٣ — كثر النظم على الأوزان القصيرة ولا سيما فى الشعر التمثيلى ، وشعر الأناشيد ، والشعر التعليمى .

رابعاً : المعانى (يراجع ما كتب عنها فى الدرس السالف)

مكانة الشعر بعد شوقى

سعد الشعر الحديث فى مصر والبلاد العربية والمهجر فى ربع القرن الذى أعقب الاستقرار الذى تمخضت عند ثورة سنة ١٩١٩ بحشد من الشعراء الكبار ، وبطائفة من النقاد الذين درسوا مناهج النقد الأوربى ومذاهبه ، وبهؤلاء وأولئك طفر الشعر طفرة رائعة فى كل ناحية من نواحيه [مر بك أسماء كثير منهم] ولما قضى الكثير نحبه ركد الشعر بعض الركود . ويمكن رد هذه الظاهرة إلى الأسباب التالية :

١ — انقضاء مظاهر التشجيع المادى والادبى للشعراء ، ففتر تحمسهم

لمتابعة الإنتاج والعناية به .

٢ — رقى النثر — كأثر لعوامل سنذكرها بعد قليل — جعله أكثر قدرة على معالجة مشكلات الحياة من سياسية واجتماعية واقتصادية وديوانية وأكثر اتصالا بالشعب بل لقد اتسع نطاقه فتناول التعبير عن العواطف والوجدانيات فى مواقف الرثاء والحب وتصوير الخلجات مما كان وقفاً على الشعر — ولهذا انصرف إليه أكثر الأدباء باعتباره الوسيلة الأكثر نفعاً وأهمية .

٣ — سهولة النثر — لخلوه من القيود المفروضة على الشعر من الوزن والقافية — وجهت أكثر حملة الاقلام إليه . وظل الشعر وقفاً على من رزقوا موهبته

٤ — زهد الناس فى قراءة دواوين الشعراء ، وميلهم إلى قراءة القصة والصحيفة والمجلة لسهولة أسلوبها ، أما الادب الذى يحمله الشعر فلم يعد لدى الناس وقت يهيء لهم جو الاستمتاع بفنه الجميل .

٥ — تعقدت الحياة وكثرت مشكلاتها فشغلت الناس والشعراء واستنفدت وقتهم ولم تترك لهم وقتاً للتجديد والإنتاج .

أسباب سبق النثر إلى التقدم :

(١) النثر فن ضرورى لأنه يعالج مشكلات الحياة — أما الشعر ففن كمالى لإثارة المتعة غالباً .

(٢) بدأت نهضتنا علمية ، والعلوم تعتمد على أسلوب النثر ، فسايرها وتحرر قبل أن يتحرر الشعر .

(٣) الشعر أكثر فنون الأدب تأصلا وعراقة ، وتأثراً بالتقاليد الفنية الموروثة وحاجة إلى المحافظة على مظاهر عروبته . أما ألوان الادب الاخرى كالقصة والرواية والمسرحية فقد تأثرت بنماذجها فى الآداب

الاجنبية ، فضلا عن أنها ألوان مستحدثة إلى حد كبير فى الادب العربى.

(٤) قول الشعر يحتاج إلى خيال بديع وذوق جميل ومداومة على النظر فى دواوين الشعراء السابقين — هذا إلى موهبة فطرية — والنثر لايحتاج إلى كل ذلك.

لكل هذه الاسباب لانعجب حين نرى أن خطوات النثر نحو التقدم كانت أوسع وأنشط .

والحمد لله أولا وآخرا

فهرس

صفحة

تم بعون الله

المستشرقون وأثرهم فى اللغة والأدب

اهتم كثير من علماء الغرب ورجاله بدراسة اللغات الشرقية وآدابها ، وجعلوها وسيلتهم إلى تعرف الحياة الشرقية وما فيها من أخلاق وعادات وتقاليد وتاريخ وديانات وعلوم . وهؤلاء هم الذين عرفوا باسم « المستشرقين » .

على أن هناك طائفة من هؤلاء المستشرقين قصروا عنايتهم على اللغة العربية وآدابها ونستطيع أن نسميهم المستعربين . وسنقف بالحديث عند هؤلاء الذين اهتموا بلغتنا وأدبنا ، وأثروا فيهما تأثيراً قوياً واضحاً .

ولقد امتد الفتح العربى إلى كثير من بلاد أوربا ، وبهرت مدنية العرب أنظار الغربيين ، فقد كانوا غارقين فى ظلام الجهل حين انتهى الشرق من نهضته ، وقطع مرحلة طويلة فى سبيل المعرفة ، وحقق تقدماً كبيراً فى العلوم والفنون والآداب .

١ — فى القرن العاشر الميلادى بدأ اتجاه الغربيين إلى الاستشراق — فقد رأوا ما بلغه العرب فى الأندلس من حظ كبير فى العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية ورأوا أنهم فى حاجة إلى هذه العلوم لينتفعوا بها فى حياتهم العملية — فأقبلوا أولا على دراسة اللغة العربية ، ثم اتجهوا ثانياً إلى ترجمة الكتب العربية إلى (اللاتينية) التى كانت لغة العلم والأدب فى هذا الوقت .

وكان أول من قام بهذا العمل رجال الدين الذين انتهت إليهم النهضة الفكرية فى بلادهم .

٢ — ومضى قرنان وأصبحت مدن الأندلس وبخاصة (طليطلة) مقصد رجال العلم من كل ناحية فى أوربا . وأقبل هؤلاء بمساعدة كثير من اليهود على ترجمة العلوم العربية إلى اللغة (اللاتينية) فى المنطق والفلسفة والحساب والهندسة والفلك والطب والكيمياء والطبيعة وغيرها ، وبعض الكتب العربية فى هذه العلوم كان مترجماً عن اليونانية وبخاصة فى المنطق والفلسفة — ثم رجع هؤلاء العلماء بما حملوا من كنوز إلى بلادهم ، وأقبل عليها طلاب العلم هناك . فكانت أساس النهضة الغربية الحديثة .

٣ — وجاء القرن السادس عشر الميلادى فازداد اهتمامهم باللغة العربية ، وأصبحت مادة دراسية يعلمونها فى مدارسهم ، وأقبلوا على إنشاء المطابع العربية ، وطبعوا فيها كثيراً من الكتب منها « تاريخ الدول » لابن العبرى و « المجموع

المبارك » لابن العميد ، و « نظم الجوهر » لابن البطريق وتاريخ أبي الفداء ومقامات الحريري .

وقد كان الغربيون يهدفون من وراء دراستهم اللغات الشرقية إلى :—

(ا) الانتفاع بما فيها من علوم وفنون وآداب .

(ب) الاستعانة بها في أغراضهم التجارية .

(حـ) أن تكون وسيلة قوية لتدعيم التبشير بالديانة المسيحية في البلاد الشرقية .

٤ — وتخطت أوربا دور التعلم ، ومهرت في كثير من العلوم ، وأضافت جديداً إلى هذا القديم الذي نقلته عن العرب ، لكن هذا لم يمنع كثيراً من الغربيين من العناية باللغات الشرقية ، ذلك لأن الاستشراق أصبح فناً قائماً بذاته يقصد به دراسة الشرق وتاريخه وآداب أممه وشرائعهم وأخلاقهم وعاداتهم ، ولا يزال المستشرقون يهتمون بالدين الإسلامي واللغة العربية إلى اليوم ، ويخرجون كثيراً من الكتب التي أصبحت عماد كثير من رجالنا في بحوثهم الأدبية واللغوية .

٥ — لم يقف نشاط المستشرقين عند هذه الصورة التي رسمناها ، بل تجدد في صور كثيرة خلال العصور الحديثة . ومنها :—

(ا) الجمعيات الأسيوية : وقد أنشأها المستعمرون لدراسة البلاد المستعمرة. ومن أقدمها جمعية أنشئت في (بتافيا) عاصمة (جاوا) . ومن أشهرها الجمعية الأسيوية الملكية بلندن ومثلها الجمعية الفرنسية ، ثم الأمريكية والألمانية والإيطالية ولكل جمعية مجلة تعنى بدراسة الشرق .

(ب) المؤتمرات : وكانوا يعقدونها في مدنهم الكبيرة ، ويجتمع فيها كثير من رجالهم ، ويقصدها كثير من علماء الشرق وأدبائه ، وفيها تلقى البحوث العلمية واللغوية ، ويقدم كثير من الدراسات والبحوث ، وأول هذه المؤتمرات مؤتمر باريس (١٨٧٣) . وقد اشتركت مصر في هذه المؤتمرات ، ومثلها حمزة فتح الله وحفني ناصف وأحمد شوقي .

(حـ) المكتبات : جمع الغربيون كثيراً من ذخائر التراث الفكري للعرب في فترات المحن الإسلامية (في الأندلس — وفي الحروب الصليبية — وفي أيام الغزو الاستعماري لبلادنا) حتى بلغ ما يوجد في مكتبات بلادهم من كتبنا أكثر من

(٢٥٠٠٠٠) مجلد ، ونحن اليوم نوالى تصوير كثير من هذه الكتب التى لاتوجد لها أصول فى بلادنا لنسترد هذا التراث العظيم .

(ى) معاهد اللغات الشرقية : وقد أنشئت هذه المعاهد فى كثير من العواصم الاوربية . وفيها يتعلم كل من يقصد إلى الشرق لغرض دينى أو تجارى أو أدبى — وكثير من أبناء الشرق يتعلمون فى هذه المعاهد التى تعنى باللهجات وتسجيل الاصوات والديانات . وفى معهد اللغات الشرقية بلندن يدرس مايزيد على ثلاثين لغة

أثر المستشرقين فى اللغة والأدب

أتيح للمستشرقين من الاسباب ما مكنهم من خدمة اللغة العربية وآدابها خدمة جليلة ، فقد أتيح لهم الوقت والمال ، ووجدوا تحت أيديهم مكتبات عامرة بأمهات الكتب النادرة ، هذا إلى تفرغهم للدراسة والبحث وإجادتهم لكثير من اللغات — ولهذا كله كان أثرهم واضحاً فى اللغة والأدب .

١ — فقد أخرجوا كثيراً من الكتب القيمة فى طبعات جميلة مزينة بالرسوم ، ومزودة بكثير من التعليقات والشروح والتصويبات والفهارس المتعددة للأعلام والأماكن والموضوعات .

٢ — اهتموا بالتحقيقات اللغوية ، وبحثوا أصول اللغات الشرقية وفقهها ووازنوا بينها موازنة تتسم بالاناة والدقة ، وحسن العرض والنظرة الشاملة ، وبحث الآراء المختلفة بحثاً يقوم على مذاهب النقد الحديثة .

٣ — أصبحت أبحاثهم اللغوية والتاريخية مرجعاً هاماً للباحثين العرب . وأصبحت كتبهم نموذجاً يحتذيه المؤلفون العرب فى التبويب والتقسيم ونظام الفهارس .

٤ — تاريخ الأدب بصورته الحديثة ، ومذاهب النقد الادبى الحديث أثر من آثارهم .

٥ — ألفوا دائرة المعارف الإسلامية فى صورة كاملة باللغات الإنجليزية والفرنسية والالمانية ، وقد حذا بعض العلماء العرب حذوهم فى هذا الميدان كالاستاذ محمد فريد وجدى .

٧ — اكتشفوا كثيراً من الآثار فى البلاد العربية ودرسوها دراسة غيرت بعض نظريات التاريخ العربى وحقائقه .

٨ — استفادت منهم الدول العربية في الجامعات التي أنشأتها حديثاً ، ولا يزال بعضهم يقوم بالتدريس في هذه الجامعات إلى اليوم . وبهذا كانوا أصحاب الفضل في وجود التحقيق العلمي والبحث الجامعي في بلادنا العربية .

على أن بعض المستشرقين لم يستطع التخلص من تعصبه الجنسي أو الديني فملأ كتبه بالطعن في الدين الإسلامي وفي العقلية العربية وفي لغة العرب وآدابهم . لكن هذا لا يمنع من أن تستفيد منهم مع الحذر والاحتياط امام هؤلاء المتعصبين . وقد رد عليهم كثير من علمائنا وأدبائنا ما أذاعوه من مفتريات رداً علمياً منطقياً .

ثم إن بعضهم كان يعجز عن فهم بعض الكلمات العربية ، أو يفهمها على غير وجهها الصحيح وهي أخطاء لا يمكن التسامح فيها لأن اللغة غريبة عنهم . اللهم إلا إذا كانت أخطاء مقصودة لغرض ديني أو استعماري فيجب أن نرده بحزم وقوة .

بعض المستشرقين

١ — « بوكوك Pocock » من أقدم المستشرقين الإنجليز . تخرج في اكسفورد ورحل إلى الشرق فأقام في سوريا وقد طبع (تاريخ الدول) لابن العبري مع ترجمة لاتينية ، وترجم كتاب «حي بن يقظان» إلى اللاتينية . وطبع كتاب «نظم الجوهري» لسعيد بن البطريق . توفي سنة ١٦٩١ م

٢ — سلفستر د ساسي « Sylvestre de Sacy » فرنسي كان عالماً باللغات الشرقية والغربية وقد خدم اللغات الشرقية وبخاصة العربية . ومن مؤلفاته كتاب « النحو العربي » في مجلدين وكتاب « الأنيس المفيد للطالب المستفيد » وله مؤلفات في تاريخ العرب الجاهليين . وله « المكتبة الشرقية » وهي في اصطلاحهم تبحث في آداب المشارقة وعلومهم في ثلاث مجلدات . وترجم إلى الفرنسية « البردة » . وهو الذي أنشأ الجمعيه الآسيوية الفرنسية سنة ١٨٢٢ . وأنشأ المجلة الآسيوية لنشر أبحاثه وأبحاث تلاميذه . توفي سنة ١٨٣٢ م .

٣ — فرايتاغ « Freytag » الألماني المتوفى سنة ١٨٦١ م ، تلميذ دي ساسي ألف بالألمانية كتاباً عن اللغة العربية في الجاهلية والإسلام . ومعجماً في العربية واللاتينية في أربع مجلدات . ونشر الحماسة لأبي تمام مع ترجمة لاتينية وعليها شرح

التبريزى فى جزئين وأمثال الميدانى مع ترجمتها اللاتينية فى ثلاث مجلدات . ورحلة البغدادى

٤ — فردينان وستنفيلد « Wuestenfeld » المتوفى سنة ١٨٩٩ ويزيد عدد مؤلفاته عن مائتى كتاب وأهم ما نشره من الكتب العربية « طبقات الحفاظ » للذهبى ، سيرة ابن هشام ، وفيات الأعيان لابن خلكان ، معجم البلدان لياقوت . المعارف لابن قتيبة الخ .

٥ — مرجليوث « D. S. Matgaliouth » من المستشرقين المعاصرين وليس بين قراء العربية المثقفين من لا يعرف اسمه ، وله أصدقاء من العرب . ومن أشهر أعماله نشر كتاب « معجم الأدباء » لياقوت الحموى . ونشر رسائل أبى العلاء مع ترجمتها إلى الإنجليزية ، وهو عمل يدل على تمكنه من العربية . وله كتاب بالإنجليزية فى سيرة النبى صلى الله عليه وسلم .

٦ — وهناك كثير من المستشرقين من جميع الدول مثل دوزى الهولندى — ودى جويه الهولندى ، وتشتوفسكى الروسى ، ونولدكه الألمانى ، وفلوجل الألمانى ، وجولد زيهر المجرى ، وسانتيلانا ونللينو الإيطاليان ، ومولر النمساوى وبول كراوس التشيكوسلوفاكى ، وفنديك الأمريكى .

حافظ إبراهيم

١ — تاريخ حياته : ولد بديروط فى ذهبية بالنيل سنة ١٨٧١م : إذ كان والده مهندساً يشرف على قناطر ديروط . وأمه من أسرة تركية . توفى أبوه بعد مولده بأربع سنوات ، فانتقلت أمه إلى القاهرة حيث كفله خاله فأدخله مدرسة أولية ثم مدرسة القربية فمدرسة المبتديان ، ثم المدرسة الخديوية . وحدث أن نقل خاله إلى طنطا ، فانتقل معه إليها ، وهنا ظهر ميله الأدب . وأخذ يختلف إلى الدروس الدينية التى تلقى فى الجامع الأحمدى وتعرف ببعض الطلبة وأخذ يطارحهم الشعر . فكرهه خاله . فتركه واشتغل كاتباً عند أحد المحامين . ولكنه ترك هذه المهنة وقصد القاهرة وانتظم بالمدرسة الحربية ، ثم عين ضابطاً وسافر إلى السودان فى حملة اللورد (كتشنر) وفى سنة ١٨٩٩ قامت ثورة فى الجيش اتهم فيها ثمانية عشر ضابطاً على رأسهم حافظ فأحيل إلى الاستيداع سنة ١٩٢٠ . ولكنه وجد

أن أربعة الجنيهات التى يتقاضاها فى الاستيداع لا تقوم بأوده ، فطلب إحالته إلى المعاش .

وكان وهو بالسودان قد اتصل بالإمام الشيخ محمد عبده ، فلما فصل لزم دروسه ومجالسه وكان ذلك سبباً فى اتصاله وتعرفه على بعض المصريين الممتازين الذين يطالبون بإصلاح مصر والنهوض بها سياسياً واقتصادياً واجتماعياً كمصطفى كامل وقاسم أمين وسعد زغلول ، ومع اختلاطه بهؤلاء نراه أيضاً قد أخذ يختلط بالشعب وبخاصة بطبقة من الأدباء البائسين التى أخذت تتغنى بالبؤس وآلامه من أمثال (إمام العبد) وفى سنة ١٩١١ اتصل بناظر المعارف أحمد حشمت باشا فعينه رئيساً للقسم الأدبى بدار الكتب ، وظل بهذه الوظيفة إلى أن أحيل إلى المعاش سنة ١٩٣٢ . ولكن الموت عاجله بعد أشهر معدودة فى يوليو من هذه السنة .

العوامل التى أثرت فى ثقافته :

(١) ميله الفطرى إلى قراءة الشعر ومطارحة أصدقائه بما يحفظ من الأبيات

(٢) اتصاله بالرجال الممتازين زاد من إحساسه ببؤسه ، وجعله يعبر عن أمانى الإصلاح والنهوض بمصر سياسياً واجتماعياً واقتصادياً .

(٣) اتصاله بالأستاذ الإمام وحضور دروسه ومجالسه وسع ثقافته .

(٤) اتصاله بالشعب عن طريق المقاهى جعل شطراً كبيراً من شعره يفيض بالشكوى والقلق والضيق .

(٥) أحداث عصره فقد عاصر فترة الفوران الوطنى .

(٦) كثرة قراءاته وحفظه لكثير من أبيات الشعر .

(٧) حياته ومآسادها من البؤس ، بؤس اليتم ، والطرد من الوظيفة ، وحياة الشظف التى كان يحياها ، مما أضفى على شعره مسحة من الحزن والألم .

شعره : يقترب حافظ فى بعض أغراض الشعر من القدماء فهو يقلدهم ويقترب من ذوقهم فى المديح ، ولكنه يضعف فى الغزل والهجاء ووصف الخمر .

المدح : لم يكن يعبر فيه عن عاطفة صادقة بل كان يقصد به التزلف إلى الحكام ،

ولكنه يرتى وتقوى عاطفته إذ كان المديح لأشخاص يحبهم حقاً كالشيخ محمد عبده ومن قوله فى مدح الشيخ محمد عبده :

له كل يوم فى رضى الله موقف — وفى ساحة الإحسان والبر موقف
تجلى (جمال الدين) فى نور وجهه — وأشرق فى أثناء برديه (أحنف)
رأيتك فى الإفتاء لا تغضب الحجا — كأنك فى الإفتاء والعلم يوسف
فأنت لها إن قام فى الشرق مرجف — وأنت لها إن قام فى الغرب مرجف
كملت كمالا لو تناول كفره — لأصبح إيمانا به يتحنف

ومعنى البيت الأخير أن الإمام لو تناول كفر المرجف لصيره إيمانا .

الرثاء : رائع عد به شاعر الرثاء فى عصرنا الحاضر ، فهو يعبر فيه عن عاطفة صادقة أملاها الوفاء الأصدقاء ، وأشعلها انطواؤه على حزن وأسى شديدين بسبب بؤسه وضيقه بالحياة وتبرمه ، وخير مراثيه ماقاله فى الشيخ محمد عبده :

سلام على الإسلام بعد محمد — سلام على أيامه النضرات
على الدين والدنيا على العلم والحجا — على البر والتقوى ، على الحسنات
لقد كنت أخشى عادى الموت قبله — فأصبحت أخشى أن تطول حياتى

الشكوى : يشكو من الزمان فى شعره شكوى مرة حتى انقلب ساخطاً يائساً يطلب الموت ليستريح من الحياة :

سعيت إلى أن كدت أنتعل الدما — وعدت وما أعقبت إلا التندما
سلام على الدنيا سلام مودع — رأى فى ظلام القبر أنساً ومغنما
فهبى رياح الموت نكباً وأطفئى — سراج حياتى قبل أن يتحطما

ومن هذه الأبيات تشعر بمقدار ضيقه من الحياة حتى اعتقد أن الموت خير منها فناداه ليريحه من الشقاء . ومع هذا البؤس الشديد فإننا لا نلمح فى حافظ الشعور بالذلة أو الضعف بل هو قوى الروح ، عظيم الاعتداد بنفسه وبشخصيته

الإخوانيات : تسرى فيها روح الفكاهة والدعابة نتيجة لقوة شخصيته وعدم ضعفها أمام النوازل والكوارث . ومن دعاباته ما قاله فى الدكتور محجوب ثابت :

يرغى ويزبد بالقافات تحسبها　　قصف المدافع فى أفق البساتين (١)

من كل قاف كأن الله صورها　　من مارج النار تصوير الشياطين

الوصف : لم يبدع فيه حافظ لأن القدماء لم يهتموا بهذا اللون ، ولأن ثقافته غير واسعة فلم تتح له التأمل فى الطبيعة . ولذلك انصرف إلى الشعر الوقتى العارض ومن قوله يصف الشمس : —

لاح منها حاجب للناظرين　　فنسوا بالليل وضاح الجبين

ومحت آيتها آيته　　وتبدت فتنة للناظرين

هى أم النار والنور معاً　　هى أم الريح والماء المعين

هى طالع الروض نوراً وجنى　　هى نشر الورد طيب الياسمين

هى موت وحياة للورى　　وضلال وهدى للغابرين

الوطنيات : حافظ ابن الشعب أحس بؤسه وحمل عبئاً ثقيلا من كوارثه وعاصر أحداثه . وشاهد ماينزله الاستعمار بالبلاد من مآسى . فتحول صوتاً لأمته يذكيه كارثته هو فى نفسه ، وأروع ماكتب فى ذلك قصيدته « مصر تتحدث عن نفسها » وهى أروع مانظمه الشعراء إذ تحتوى إيماناً لا يتزعزع بمستقبل مصر ، وفخراً قوياً بمآثرها المسطرة فى التاريخ .

أنا تاج العلاء فى مفرق الشر　　ق ودراته فرائد عقدى

أى شىء فى الغرب قد بهر النا　　س جمالا ولم يكن منه عندى؟

الشعر السياسى : كان شوقى يندد دائماً بسياسة الانجليز فى مصر وبسياسة (المتجلنزين) ومن ذلك قوله حين أحيل إلى المعاش وكان إسماعيل صدقى رئيساً للوزارة ويحكم البلاد حكما جائراً : —

حولوا النيل واحجبوا الضوء عنا　　واطمسوا النجم واحرمونا النسيما

املئوا البحر إن أردتم سفينا　　واملئوا الجو إن أردتم رجوما

إننا لن نحول عن عهد مصر　　أو ترونا فى الترب عظما رميما

---

(١) المقصود بساتين بركات وكان الشاعر بها مع الدكتور حين نظم هذه القصيدة.

الشعر الاجتماعى : كان يصور أحاسيس نفسه ومشاعره ويصور آلام الأمة وآمالها ، ويسهم بقوله فى كل مشروع اجتماعى . ومنه قوله :—

إنى أرى فقراءكم فى حاجة — لو تعلمون — لقائل فعال

فتسابقوا الخيرات فهى أمامكم ميدان سبق للجواد النال

وجزاء رب المحسنين يجل عن عد وعن وزن وعن مكيال

ومن شعره الاجتماعى ما دعا به إلى الإصلاح الاجتماعى العام فى العادات والأخلاق . ومن هذا النوع قوله :

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

أسلوبه :

(١) يمتاز بالنقاء والجزالة . والصفاء فليس فيه تعقيد .

(٢) كان يعانى كثيراً فى اختيار ألفاظه مما جعل عنايته بمعانيه محدودة .

(٣) ليس له حظ كبير من الثقافة الغربية ولذلك لم يستمد فى شعره شيئاً من الآداب الأجنبية فهو شاعر بطبعته لا بثقافته .

(٤) شعره خال من التأمل الدقيق ، ومن المعانى العميقة لما أصاب حياته من القلق والاضطراب ، فأثر فى قراءاته التى كان يتنقل بينها كثيرا .

(٥) شعره من طراز قديم ولم يجدد إلا فى بعض الأغراض « الشعر الوطنى — والاجتماعى » .

(٦) يميل إلى التكرار ، ويكثر من المبالغة على عادة القدماء .

(٧) خيال ليس خصباً . وقد حاول أن ينظم القصة فى شعره ولكن لم ينجح لضيق خياله .

الأغراض التى قصر فيها :

(١) وصف الحرب مع أنه تخرج فى المدرسة الحربية وسبب ذلك أن ثقافته الحربية محدودة وأنه لم يخض معارك كالبارودى .

(٢) وصف الآثار المصرية . فقد أهملها إهمالا تاماً .

(٣) الشعر التمثيلى لضيق خياله .

(٤) الغزل . فهو قليل جداً فى ديوانه لا يتجاوز تسعة وعشرين بيتاً .

(٥) الفخر . فهو من أبناء الشعب عاش أكثر أيامه بائساً . فإذا أراد أن يفخر فبلاده ووطنه فى شعر الوطنيات . وفى سياقه الشكوى أحيانا .

ومع كل هذا استطاع أن يأخذ لنفسه مكانة ممتازة على صفحات التاريخ بين شعراء عصره لتغنيه بأمجاد بلاده وأمانى قومه .

حافظ الناثر : لحافظ آثار أدبية نثرية منها كتابة (البؤساء) ومنها رسائله إلى إخوانه ومن اتصل بهم من قادة الرأى فى مصر وإذا درسنا نثره فى هذين الأثرين وجدناه فى كتاب (البؤساء) مرسلا رصين التركيب جزل اللفظ يميل إلى الإغراب يقول الدكتور طه حسين : (ولقد كلمت حافظاً فى ذلك الإغراب فقال : إنى عملته للخاصة . وكنت أظن أنى من هؤلاء الخاصة فإذا بينى وبينهم أمد بعيد ، وأحسب أن خاصة حافظ لا يوجدون إلا فى خياله وإليك عبارات من كتابه : وكان جان فالجان ربعة فى الرجال بادنا شديد الحول يقرب لونه إلى السمرة ، طويل شعر اللحية ، قصير شعر الرأس القرب عهدها بالمقراض ، نيفت أعوامه على الأربعين) والجزء الأول من كتاب البؤساء أصدق تصويراً للبؤس من الجزء الثانى ، ولعل السر فى ذلك أن حافظا ترجم الجزء الأول وهو فى محنته . أما كتابه إلى الأستاذ الإمام فقد عنى فيه بالمحسنات البديعية والإشارة إلى الأحداث التاريخية والآثار الأدبية ومزج الشعر بالنثر . وما أرى أسلوبنا الحديث إلا قد هجر هذا النحو وتخلص من قيوده . قال حافظ : كتابى إلى سيدى وأنا من وعـــده بين الجنة والسلسبيل ، ومن تيهى به فوق النثرة والإكليل ، وقد تعجلت السرور ، وتسلقت الحبور وقطعت ما بينى وبين النوائب .

وبشرت أهلى بالذى قد سمعته ∴ فما محنتى إلا ليال قلائل

رحم الله حافظاً فقد رفع مجد مصر فى سماء الأدب وغذى عاطفة الشرق العربى بغذاء من الأدب الرفيع .

المــازنى

(١٨٩٠ — ١٩٤٩)

هو إبراهيم عبد القادر المازنى ولد بالقاهرة سنة ١٨٩٠ ونشأ بها ومات سنة ١٩٤٠ .

حياته وأحداثه :

(١) نشأ نشأة دينية فأبوه محام شرعى وخاله من رجال الدين .

(٢) مات أبوه وهو صغير ، فذاق مرارة الحرمان وشظف العيش ، ولكنه أتم تعليم نفسه ، ولحق بكلية الطب ، ولكنه أغمى عليه فى حجرة التشريح فتركها وتحول عنها إلى مدرسة المعلمين العليا التى تخرج فيها سنة ١٩٠٩ .

(٣) اشتغل بالتدريس حتى سنة ١٩١٧ ثم تحول إلى الصحافة إلى أن مات .

(٤) حياته سلسلة من الأحزان والكوارث . فقد مات أبوه كما ذكرنا — وهو صغير ، وكان قصير القامة ضئيل الجسم ، فسبب ذلك له متاعب كثيرة أضنته ، وتزوج زوجة كانت دائما مريضة ، وحدث أن صعد مرة سلماً ليحضر لها دواء من صيدلية معلقة على الحائط . فانحرف به السلم وسقط ، وأصيبت ساقه إصابة انتهت به إلى العرج الذى لازمه بقية حياته ، وقد ماتت هذه الزوجة . فتزوج أخرى رزق منها ثلاثة أولاد وبنتاً ، ولكن البنت ماتت ثم لحقت بها زوجته فحزن عليهما حزناً شديداً وقد حدث هو عائد إلى منزله فى إحدى الليالى أن تردى فى مقبرة فاستولى عليه الرعب وسيطرت عليه الأفكار السوداء وقصد جميع الأطباء ليعالجوه من مرض موهوم .

كان لهذه الأحداث أثر كبير فى نفسه وعواطفه . فقد قوت من ثقته بنفسه وصقلت طبيعته الأدبية ، وخلفت فيه حساسية شديدة وعصبية مرهقة أثرت فيما أنتج من شعر ونثر .

٥ — اشتغاله بالصحافة كان سبباً فى اتصاله بكثير من رجال الأحزاب والسياسة ، ولكنه ظل مستقلا بأفكاره وآرائه التى لا من بها . فقد كان يعتقد أنه من رجال الأدب آمن رجال السياسة .

٦ — عاصر كثيراً من الأحداث التى ألمت بوطنه وبالوطن العربى . عاش فى أواخر أيام مصطفى كامل . إبان الفورة الوطنية ، وشاهد المرجل يغلى فى

ثورة سنة ١٩١٩ وعرك الاحتلال ولمس بنفسه ماينزله بالبلاد من كوارث ومصائب. وكان لذلك أثر فى نفسه تلمحه فى شعره .

٧ — اتجه إلى الآداب الغربية ينهل من مواردها . وحاول أن يتأثر بطريقة الغربيين وأساليبهم وبخاصة الأدباء الذين امتازوا بالانطواء ، فقصروا مشاعرهم على الإحساس بآلام البشرية . ولقد تأثر كثيراً بقصة (سانين) لأرتزيباشيف وبقصة (الآباء والأبناء) لتور جنيف فخلقتا فيه الاستخفاف بالحياة وبمن فيها وما فيها .

أخلاق : كريم رغم فقره ، مسرف . غنى النفس ، قوى الإيمان ، عظيم الثقة بنفسه .

أولا :

أدبه : من الممكن أن نقول أن أدب المازنى (شعراً ونثراً) أدب ذاتى شخصى كما سنذكر بعد . ولكنه استطاع لفلسفه الساخرة ولما أفاده من الحياة أن يضفى عليه طابعاً إنسانياً .

ا — شعره : المازنى رائد من رواد الشعر الحديث ، يمتاز بعاطفة صادقة جعلته يعبر عن إحساسة فى صدق ودقة وأمانة ، وتغلب على شعره نزعة الألم نتيجة لما ألم به من أحداث ، وما أصابه من كوارث ، وما لمسه فى أيامه من آلام وطنه .
وما جرى عليه الاحتلال والاستعمار من بؤس وشقاء فجاء شعره معبراً عن كل ذلك ، حتى عناوين قصائده : « الملل من الحياة » ، « خواطر فى الظلام » ، « أحلام الموتى » ، « الليل والهم » . وغير ذلك — حتى لقد رثى نفسه فى أكثر من قصيدة .

قضى غير مأسوف عليه من الورى ... فتى غره فى العيش نظم القصائد
فعاش وما واساه فى العيش واحد ... ومات ولم يحفل به غير واحد
فلم يبكيه إذ مات إلا أجيرة ... لها زفرة لولا اللها لم تصعد

وما أجمل قوله : « لولا اللها لم تصاعد » فإن هذا الشرط يحمل معنى مبتكراً لم يسبق إليه ، حتى هذه الأجيرة لم تبكه إلا لأن لها عنده عيشاً وعطية وإلا ما بكته .

ولكن هذا الجو المحزن لم يدفعه إلى الاستسلام ، ولم يجره إلى اليأس القاتل من دنياه ، فقد كان كبير النفس ، قوى الإيمان ، عظيم الثقة بنفسه ، متوثب الطبيعة فلم ييأس ، ولكن تحول إلى ثائر على الحياة والأحياء .

تراغمنى الأحداث حتى كأننى وجدت على كره من الحدثان

فلا هى تصمى القلب منى إذا رمت ولا ترعوى عن الشنآن

* * *

سأقضى حياتى ثائر النفس هائجاً ومن أين لى عن ذاك معدى ومذهب

على قدر إحساس الرجال شقاؤهم وللسعد جو بالبلادة مشرب

فهو قد وجد رغم الأحداث ، فهى تصارعه ولكنها لا تقضى عليه ولا ترجع عن غضبها وحقدها . ولذلك فسيظل ثائراً شديد الثورة . فهذا طبعه وديدنه . فسعادة الرجل تأتى أحياناً من بلادته . وقد تكون عواطفه ورقة إحساسه سبباً فى شقائه . ومن يكون هذا الشقى إلا المازنى ، فهو رجل مرهف الإحساس . والقصيدة كما ترى من القافية المردوجة . فيها نقمة على الحياة . نتيجة شعوره بالغبن والظلم ، ولكنها نقمة لا تسير به فى طريق اليأس والخنوع ، بل تنتهى به إلى الثورة الصارمة ،

أثر المازنى فى التجديد :

(١) هو أحد ثلاثة « هو — وعبد الرحمن شكرى — وعباس العقاد » . حطموا القالب التقليدى للقصيدة العربية ، فخرجوا به عن شكله القديم . وجددوا فى إطاره فنظم كل منهم الكثير من قصائده فى قواف مزدوجة ، وفى أوزان متعددة كما فى الموشحات .

٢) كذلك كان الثلاثة أول من حطموا موضوع القصيدة التقليدى . فرأوا أن موهبة الشعر لم تخلق للزلفى ولشعر المديح الذى استهلك معظم الشعر القديم . والذى كان يصدر عن غير عاطفة مما أثر على فنون الشعر الأخرى . بل رأوا أن موهبة الشعر يجب أن تخرج عن هذه الموضوعات التقليدية القديمة ليعبر بها الشاعر عن إحساسه بنفسه وبالكون من حوله ، وبالحياة البشرية فى آلامها وآمالها تعبيراً صادقاً .

(٣) المازنى أول من نادى بوحدة الموضوع ، فالقصيدة تجربة ذاتية للشاعر ولذا يجب أن تكون أبياتها متصلة كأنها سلسلة مترابطة الحلقات . وهذا على العكس من النظام القديم الذى كان يعتبر البيت وحدة مستقلة . ويعد اتصال الأبيات وارتباط بعضها ببعض عيباً يسمونه التضمين . ومن أجل ذلك نقد ديوان حافظ ـ لما صدر ـ نقداً مراً لأنه سار فيه على منهج القصيدة وموضوعها التقليدى القديم ، فجاءت قصائده مفككة تعتمد على المبالغة فى المدح دون أن تعبر عن العواطف والأحاسيس النفسية عند الشاعر تعبيراً صادقاً .

وإليك قصيدة المازنى « ليلة وصباح » لترى فيها مصداق ذلك . وقد سبق بعضها . إنك إذا قرأتها فى كتاب الأدب والنصوص ص ٢٢٥ لحت فيها تجديداً فى الموضوع وفى القالب والإطار . فالقوافى لم يوحدها إلا فى بيتين بيتين ، وقد يقصر البيت أو يصبح كلمة على قافية البيت السابق : وهى قصيدة ذاتية كاملة ، ووحدة مترابطة لا تستطيع أن تقدم فى أجزائها أو تؤخر . بل لكل جزء مكانه الذى لا يمكن أن يفارقه .

ولقد أخرج المازنى ديوانين أولها سنة ١٩١٢ والثانى سنة ١٩١٧ على طريقته الجديدة ، وعبر فى قصائده عن إحساسه ، ووصف خلجات نفسه وما يشعر به إزاء الكون والحياة الإنسانية . ورغم تجديد المازنى إلا أنه لم يخرج بالشعر عن الناحية الغنائية . ولم يفعل به كما فعل مطران إذ خرج به إلى « الموضوعية » « الرومانتيك » .

(ثانياً) نثره : قسمان :

١ ــ المقالة : (١) يعتبر المازنى على رأس من نهض بالمقالة الصحفية فقد اشتغل ، بالصحافة ثلاثين عاماً أو تزيد ، يدبج المقالات فى السياسة والاجتماع والأدب

(٢) وقد ساعدته ثقافته العربية والغربية على أن يفسح فى مقالاته ، ويفتح باباً جديداً فى دراسات أدبية عن أدباء غربيين وعرب ، ويعتبر ما كتبه فى كتابه « حصاد الهشيم » عن بشار وابن الرومى من خير ما كتب فى عصرنا عن الشاعرين .

(٣) كثير من مقالاته يدور حول ذكريات حياته أو ماخبره فى الحياة من تجارب أو علاقته الاجتماعية أو مايقابله من صعاب ومشقات فى عمله .

٤ — دبج مقالات وطنية رائعة دفعه إليها ماشعر به فى أعماق نفسه من بؤس أمته ، فعاش يناضل فى سبيلها بقلمه . ولقد كان أول من آمن بالجامعة العربية فأخذ يدعو إليها قبل أن تخلق بسنوات طويلة . كتب فى سنة ١٩٣٥ تحت عنوان « القومية العربية » يقول :

« لقد أحطنا قوميتنا بمثل سور الصين ، ولو أن هذه القومية العربية لم تكن إلا وهما لاسند له من حقائق الحياة والتاريخ لوجب أن نخلقها ، فما للأمم الصغيرة أمل فى حياة مأمونة . . . . إن أية دولة تتاح لها الفرصة تستطيع أن تثب عليهم وتأكلهم أكلا بلحمهم وعظامهم ولكن مليون فلسطينى إذا أضيف إليهما مليونا الشام وملايين مصر والعراق مثلا يصبحون شيئاً له بأس يتقى .

٥ — خير مقالاته الأدبية ما اتصل بخوالج نفسه فهو يحسن التعبير عن ذاته وبخاصة إذا كان متأثراً . اقرأ له مقالا عن ابنته التى أودعها الثرى فإنك سترى فيه أسلوباً شفافاً يعطيك صورة واضحة عما انطوت عليه نفسه ، وما يعتمل فيها من خطرات ، وما يملؤها من أحلام وذكريات . ومنه قوله :

« أنظر إليك وفى قلبى سكينة وجوى من قربك المعطر ، بمثل أنفاس الروضة الأنف فى البكرة الندية . وألمح شفتيك الرقيقتين تختلجان ، وعينيك تلمعان . فتطيب نفسى بسرورك الصامت ، ثم أسمع ضحكتك الفضية . وأراك تغطين وجهك الحلو بالورقة ، فيستطيرنى الفرح . ويستخفنى الجذل . »

والمقال فيه ذكريات وقدرة بارعة على الوصف والشرح وحشد التفاصيل وكل مايجول بالذهن والنفس من خواطر وهذه ميزات وقد ساعده على ذلك حساسية شديدة مرهفة . ومادة غزيرة نتجت من كثرة قراراته وسعة اطلاعه فارجع إليه بالكتاب المقرر ص٤١٩ . وهذا المقال يذكرنا بما كتبه فيكتور هوجو فى رثاء ابنته التى غرقت هى وزوجها فى نهر السين وبما كتبه ابن الرومى فى رثاء ابنه .

٦ — كما امتاز بأنه كان يوائم بين كتابته وبين حياة الناس . فى الموضوع وفى الألفاظ وكان يميل إلى الألفاظ السهلة ، ويكثر من استعمال الكلمات العامية التى لها أصل فى اللغة العربية .

٧ — كان كثيراً ما يمزج فى كتابته بين الجد والهزل والفكاهة والمداعبات الطريفة ، دفعاً لملل القارىء وقد يميل إلى السخرية ولكنها سخرية خفيفة مستملحة وهو مثال واضح صادق المزاج المصرى .

حـ — قصصه : مميزاتها .

١ — مادتها من حياته وأحداثه فى دنياه . فهو بطل معظم ما كتبته من قصص .

٢ — بعضها يشبه الاعترافات كما فى « إبراهيم الكاتب » ، « إبراهيم الثانى » ففيهما تصوير صادق لحياته ولما مر به من كوارث وأحداث .

٣ — لا يهتم فى قصصه بالقواعد المرعية فى القصة من حبكة وعقدة ، وإلقاء الضوء على البطل بل يهتم بتحليل النفوس وتصور الشخصيات .

٤ — يكثر فيها من التوليدات العقلية التى تتصل بشخصيته وبحياته .

٥ — يخلع عليها خفة من روحه وظرفه حتى لا يملها القارىء

٦ — هى كنز ثمين لكثير من القيم الإنسانية والمقاييس الجمالية التى أظهرها واضحة نفاذة من تفكيره ورهافته شعوره وفلسفته الساخرة .

وأهم قصصه غير ماسبق ، « ثلاثة رجال وامرأة — « ميدو وشركاه » ، وأكثر من القصص القصيرة التى ضمنها كتبه « من النافذة — فى الطريق — ع الماشى » .

فلسفة المازنى :

امتاز المازنى بفلسفة طابعها التذمر والشكوى ، وكذلك السخرية والتهكم والاستخفاف بالحياة .

مميزات أسلوبه :

فهو لا يتكلف فى اللفظ ، بل يستعمل أقرب لفظة ، وأسهل أسلوب ، ومذهبه استعمال الألفاظ العامية مادامت صحيحة ولها أصل فى اللغة .

أهم كتبه : حصاد الهشيم . صندوق الدنيا . خيوط العنكبوت . وهذه العناوين تشعرك بسخريته من نفسه ومما يكتبه ، فهو شىء لاقيمة له . كأنه خيوط العنكبوت أو الهشيم ، أو العبث الذى يجده الإنسان فى صندوق الدنيا يلهو به .

سلسلة كتب :

الضيـــــاء

فى

النقد والبلاغة ـ الأدب ـ النصوص والمحفوظات

للثالثة الثانوية وما يعادلها

تطلب من

مكتبة مصر بالفجالة

والسروى بالمنصورة وحجازى بالاسكندرية وسعيدة بدمنهور

جنيد ببنى سويف وقنصوه بالسنبلاوين وعبادة بالزقا

والبديوى بطنطا وسمنود الحديثة بسمنود والنشار بميت

والطلبة بدكرنس وغيرها من المكتبات بمصر والأقاليم

